روايات عبير



شاري وينيرلي

نهر الذكريات

٨٦

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية

BLACK NIALL

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd. Bungay, Suffolk

١ - شمس في الذاكرة

لم يعرف أحد أن نيال ماكيين قدم إلى بلدته شيليبنغ، إلى أن وصلها فعلاً في ذلك اليوم الصيفي العاصف.

كانت اليسون ماكاي جالسة في غرفة الصف عندما شرد انتباهها عن الدرس الذي كان ويلي ماكليود يشرحه لستة من زملائه التلامذة. ومن مقعدها المرتفع لمحت ظلاً أزرق اللون يمر عبر الأشجار فأجمعها تسرع نحو النافذة.

كانت القطعة التي توقفت عن الشرح مستمرة...

« اقطع الفراغات ويلي. فنحن نستمع إليك ».

انتظرت حتى عاودت السيارة الزرقاء الظهور. لم تستطع أن تميز شيئاً داخل السيارة لأن المطر الغزير كان يهمس على كل شيء. ترى من الذي يقصد القرية في منتصف آخر الأسبوع من حزيران؟ فالمدرسة تقع خارج الطرق التي يقصدها السياح، وهي معزولة تماماً باستثناء الدكاكين المتنقلة التي تزورها مرتين في الأسبوع.

فجأة التمعت السماء ببرق قوي أعقبه صوت الرعد العاصف. وعلى هذا الضوء الباهر شاهدت السيارة مرة أخرى وهي تصعد الطريق الوحيد في المنطقة ثم تقف أمام فوك هيل الذي بدا غامضاً وغريباً في هذا الشتاء الغزير.

ارتعشت أليسون لاحساسها بقرب وقوع مشاكل غير محددة، وأحست بالبرد رغم ان قاعة الصف كانت دافئة تماماً. لمحت شكل رجل يخرج من السيارة ثم يقطع الشارع مسرعاً قبل ان يختفي في أحد الأكواخ

هناك. اعتقدت أنه دخل منزل فرجوس ماكوين، لكنها لم تكن متأكدة.

خيّم صمت شامل على القاعة، فعادت اليسون الى مكانها وهي تقول:

«أحسنت يا ويلي، كانت قراءتك ممتازة»

نظرت اليسون الى ساعة يدها، انها الرابعة إلا الربع تقريباً. لم يعد هناك مجال للعودة الى الدروس، بالاضافة الى أن الأولاد باتوا منزعجين من العاصفة، بل ويبدو على اثنين منهما الخوف الشديد. توجهت اليسون الى الطاولة وقالت:

«هيا أيها الأولاد، احملوا معاطفكم وسآخذكم الى بيوتكم»

ابتسمت وهي تراقب الأولاد وسرورهم. من حسن الحظ أنها جلبت سيارتها عند الصباح، فمع أنها تعيش على بعد ميل واحد فقط من المدرسة إلا أن هذا المطر الغزير ما كان ليتركها تسير ولو لأمتار قليلة.

تأكدت اليسون من أن النار في المدفأة خامدة، ثم اطفأت الأنوار وجمعت الأولاد في المدخل الى حين فتحت هي أبواب السيارة لهم. وواحداً بعد واحد ركض الأولاد الفرحين الى أبواب بيوتهم المفتحة على طول الطريق الوحيد. واحدة من التلاميذ، فيونا ستيوارت، تعيش في البيت المجاور لمنزل فرجوس ماكوين، لذلك قالت اليسون وهي تفتح لها الباب:

«يبدو ان السيد ماكوين يستقبل بعض الضيوف»

استغربت اليسون النظرة غير الطبيعية على وجه الفتاة. صحيح أن فيونا كانت في العاشرة من عمرها فقط، إلا أن كل سكان القرية يعرفون التفاصيل الشاملة عن النزاع. قالت فيونا:

«هذا صحيح يا آنسة اليسون»

كان الكلام مضيعة. تظاهرت اليسون بأنها تراقب فيونا حتى تصل الى بيتها، بينما كان نظرها في الواقع مركزاً على القنديل الزيتي الذي ينير الغرفة الأمامية من منزل السيد ماكوين، وطيلة الوقت كان التساؤل حول هوية الضيف يلح على فكرها ومشاعرها.

لكن اليسون نسيت كل شيء، عندما وصلت الى البيت، فهناك أمور

أخرى كثيرة تشغل بالها. سمعتها جسي وهي توقف السيارة أمام الباب الخلفي، فأسرعت تفتح لها الباب وهي تقول:

«هيا بسرعة يا ابنتي ... هيا»

قطعت اليسون المسافة القصيرة ركضاً، وعندما وقفت الى جانب المرأة ذات الشعر الأبيض الناصع، قالت:

«يا له من يوم قاس يا جسي. هل الشاي جاهز؟»

«إنه على النار. لحظات ويكون قدح الشاي أمامك. لكن قبل كل شيء أريد أن أحدثك قليلاً، هيا اجلسي»

اعترضت اليسون على جسي التي حاولت ان تجلسها وقالت:

«أنا سأصنع الشاي...»

«لن تفعلي ذلك. هناك شخص واحد في هذا البيت يعرف كيف يصنع الشاي... وهذا الشخص هو أنا»

ابتسمت اليسون من على كرسيها الهزاز وقالت:

«آسفة يا جسي، لا أعرف ما يمكن أن أفعل من دونك»

وكانت تعني كل كلمة تقولها. راحت تراقب يدي العجوز وهما تعملان بثقة وخفة في اعداد الشاي. فقد عاشت جسي مع العائلة منذ ما قبل مولد اليسون، بل حتى قبل مولد أخيها اليك الذي يكبرها بخمس سنوات. والآن، بعد وفاة والدها وزواج اليك في كندا وتبخر ثروة العائلة بالكامل... لا تزال جسي معهم في الضراء كما كانت في السراء.

وبقوة لعبت عليها، استطاعت جسي أن تقف الى جانب الأم عندما قتل الأب في حادث طائرة وهو في رحلة عمل الى يوغوسلافيا قبل ثلاث سنوات. كان الأب على وشك ان ينقل شركته الهندسية الى مرحلة أخرى من النجاح، مرحلة كانت ستعني الثروة والأمان، بعد خيانة غير متوقعة من شريك عمل.

المال الذي كان من بقي العائلة ابتلعته ترتيبات الدفن بعد الحادث الفجيع... ومع ذلك ظلت جسي معهم. وكم تمنت اليسون أن تظل معهم طيلة حياتها، فهي تحب مديرة المنزل وترتاح اليها كثيراً.

وضعت جسي ابريق الشاي من يدها وقالت:

« المسألة تتعلق بالمال. فهي تتصرف بشكل غريب هذه الأيام. تتجول في البيت على غير هدى بدلاً من الاهتمام بلوحاتها الفنية. وقد لاحظت على وجهها تلك النظرة الحالمة. النظرة نفسها التي تحملها عندما تكون قد وضعت في رأسها فكرة ثابتة. أتوقع أني لا أعرف منذ متى تفكر. لكني يمكن أن أخمن ».

هزت اليسون رأسها وقد أحست قلبها يخرج من أضلعها:

« البيت ؟ ».

تمعنت جيسي في وجه اليسون بحدة وقالت:

« أجل. فهي تواصل الحديث منذ مدة عن أن البيت كبير ويكلف الكثير من الأموال لصيانته... وما شابه ».

قاطعتها اليسون بأسى واضح:

« أعرف ذلك. إنها تثير الموضوع كل صيف عندما تكشف الشمس ما حلّ بالبيت من الخارج. آه يا جيسي، ماذا يمكن أن نفعل ؟ ».

تلفتت جيسي حولها قائلة:

« الله وحده يعلم يا بنيتي. إنها على حق. ماذا تفعل ثلاث نساء وحيدات في هذا البيت الضخم ؟ الدخل الوحيد هو المال الذي تكسبينه وما قد تبيع أمك من رسوم... وهذا الدخل لا يكفي ».

ردت اليسون بانفعال يائس:

« لكنها لا يمكن أن تبيع البيت، فهو متوارث في العائلة منذ أجيال ».

توقفت عن الكلام وكأن فكرة طارئة داهمتها ثم أضافت:

« في كل حال، من سيشتري البيت ؟ فالمعروف أن مثل هذه البيوت الضخمة غير رائجة في السوق. آه يا جيسي... ».

أخفضت عينيها براحتي يديها وهي تقول:

« أتمنى أن تكوني مخطئة ».

« صحيح. لكن يجب أن نكتشف الحقيقة. من الأفضل أن تسأليها لكن بلطف يا اليسون. فأنت تعرفين بأنها تضطرب فوراً إذا ما تعرضت لأية مشاكل ».

ابتسمت اليسون ابتسامة صفراء وقالت:

« سأفعل ذلك حتماً. أشكرك يا جيسي لأنك أخبرتني. لعلنا نستطيع إيجاد مخرج. من يدري ؟ ».

رمت اليسون هذه العبارة بخفة، لكن قلبها كان مثقلاً بالأحزان. فهي تحب بيتها بكبريائه وعجرفته. فقد كان منزلاً ريفياً فسيحاً مبنياً بالحجر الصخري، موقعه يواجه الشرق بحيث تحضنه الشمس كل صباح، ومع ذلك تحميه التلال المجاورة من العواصف والأمطار. كما تحيطه الجبال والغابات في موقع يعتبر من أجمل مناطق اسكتلندا. وبينما هي في طريقها من المطبخ إلى القاعة الرئيسية، امتلأ البيت برنين خافت أعقبه رعد قوي... فازداد اضطراب اليسون وخوفها.

كان على اليسون أن تنتظر حتى ساعة متأخرة من الليل كي تعرف الحقيقة التي أثبتت كل التكهنات. كانت جالسة في مقعدها المريح في غرفة الجلوس وهي تراجع بعض الدفاتر المدرسية، وعندما رفعت عينيها إلى أمها لمحت على وجهها تلك النظرة الحالمة التي تعني الكثير. إنها النظرة التي تكشف عن كل مكنونات الأم. لذلك لم تعد تحتمل المزيد. وضعت الدفاتر جانباً وقالت بهدوء:

« أمي أرجوك أن تحدثيني ».

فتحت السيدة ماكاي عينيها على اتساعهما، وهي تشعر بالذنب أكثر من أي وقت مضى. أحست اليسون بخفقة حب عارمة لأمها، وكادت أن تجهش بالبكاء لكنها تمالكت نفسها بسرعة. بدت الأم متعبة ومهزومة بحيث أجبرت اليسون على استرجاع صورتها عندما كانت مهندسة ديكور ناجحة جداً زارت معظم أقطار العالم مع شريكة لها قبل أن تتعرف إلى والدها في استراليا... بعد ذلك عادت إلى اسكتلندا وتزوجته وتركت أعمالها لتصبح ربة بيت مثالية. ومنذ ذلك الحين لم يسمع أحد منها كلمة أسف أو ندم على الثروة الكبيرة التي كانت ستحصل عليها فيما لو استمرت في مهنتها. أما الآن فتكتفي بالرسم الريفي، وفي بعض الأحيان تبيع اللوحات إلى مردوخ أكري، وهو صديق قديم للعائلة يملك محلاً فاخراً لبيع التحف القديمة واللوحات الفنية.

« أخبرك عن ماذا ؟ ».

لكن ارتجفت يدها وهي تداعب شعرها كاشفة كل ما تحاول إخفاءه.

توجهت اليسون لتجلس على الأرض أمام أمها ثم وضعت رأسها في حضنها وقالت :

« آه يا أمي . أنا وجيمي قلقان عليك كثيراً . هناك شيء ما يدور في تفكيرك ، ولا بدّ لك من الحديث عنه عاجلاً أم آجلاً فلماذا لا يكون الآن ؟ » .

لم يكن للأم مهرب من القلق الواضح في كلام ابنتها . تنهّدت بعمق بينما يدها تداعب شعر اليسون بحنان :

« حسناً . لقد فكرت ، كان علي أن أحدثك به قبل الآن لأني لا أحب أن أخفي شيئاً عنك . أنت عاطفية » .

فجأة تهدّج صوتها وكادت تبكي ، لكنها تمالكت وتابعت تقول :

« لقد وصلت الأمور إلى حد بات معه من المستحيل المضي في الوضع الحالي أكثر . علينا أن نبيع البيت » .

نظرت اليسون إلى أمها وهي تجاهد كي تحبس دموعاً ترقرقت في عينيها عندما تأكدت مخاوفها :

« هذا ما فكرنا فيه . لكنني أحب هذا البيت كثيراً » .

ردّت الأم بحنان واضح :

« وأنا أحبه أيضاً . لو تعرفين كم فكرت في المسألة قبل اتخاذ القرار ؟ لا بدّ من أن أعترف منذ مدة ، لكنني كنت آمل حدوث ... أنت تعرفين كيف أفكر » .

هزّت اليسون رأسها وهي تشعر بالحزن لأمها ولنفسها أيضاً .

تابعت الأم :

« الواقع أني بحثت المسألة مع السيد جون ستيوارت » .

وجّهت اليسون نظرة حادة إلى أمها . فمع أن جون ستيوارت هو محامي العائلة ومن الطبيعي أن تبحث الأم معه موضوع البيت ، إلا أن ذكر اسمه جعل عملية البيع تبدو أكثر إلحاحاً .

« وماذا قال لك ؟ » .

ابتسمت الأم بضعف وقالت :

« لن تصدقي الأمر . هناك شخص ما مهتم بشراء البيت . لم يخبرني السيد ستيوارت عن هوية هذا الشخص ، حتى أني لم أعرف ما إذا كان

رجلاً أو امرأة ، والظاهر أن هذا الشخص اتصل به قبل حوالي سنة وأبلغه أنه مهتم بالبيت ، ويريد أن يعرف حالما نقرر طرحه للبيع . ولا شك أن هذا الشخص يعرف البيت . المهم أن المحامي اتصل بي أمس وقال لي إن ذلك الشخص سيتصل بنا قريباً » .

حوّلت الأم نظرها إلى النافذة ، وتابعت تقول وهي تربّت على كتف اليسون :

« وهذا هو السبب الذي جعلني متوترة خلال الأيام القليلة الماضية . أرجو أن تسامحيني ، إذ ليس أمامي إلا هذا السبيل » .

هزّت اليسون رأسها بعنف :

« لا . لا بدّ أن هناك طريقة أخرى » .

« وما هي ؟ أنني لم أجد حلاً آخر . أنت تعرفين كيف يكون البيت في الشتاء ... يصبح كثلاجة كبيرة جداً . كان علينا أن نركّب تدفئة مركزية منذ مدة . الأمر كان مختلفاً عندما كان البيت مليئاً بالزوار والنار في كل غرفة ... لكنه لم يعد كذلك . نحن وحدنا في البيت ، وجدتي أصبحت كبيرة في السن . إلى متى تظنين أنها ستظل قادرة على العمل في ذلك المطبخ الشاسع ؟ صحيح أنها لا تشكو ولا تتذمّر ... لكن التعب سيظهر جلياً بأسرع مما نظن » .

هدأت العاصفة ، وانعكس الهدوء على مزاج اليسون التي بدت ساكتة وكأنها تخلّت عن كل معارضتها . تنهّدت وحوّلت نظرها باتجاه الكلب رامبي الذي كان مستمتعاً بالقرب من المدفأة . مدّت اليسون يدها تداعبه ، وسألت أمها من دون أن تنظر إليها :

« وإلى أين سنذهب يا أمي ؟ » .

« كنت أفحص منذ يومين الكوخ الملحق بالبيت والأراضي المحيطة به . صحيح أنه بحاجة إلى عمل كثير لأنه مهجور منذ أن تخلينا عن البستاني العامل فيه ، إلا أنه يصلح لنا نحن والكلب أيضاً » .

رددت اليسون كلام أمها :

« ... والكلب أيضاً . لكن هل يمكننا بيع البيت دون الكوخ » .

أجابت الأم باستغراب :

« طبعاً . الواقع أنها منفصلة . وسوف نحتفظ بالحديقة الصغيرة

المحيطة بالكوخ، وفي الوقت نفسه تطل على الوادي تماماً كما تطل من هنا.

كل ما قالته الأم كان صحيحاً. لكن اليسون تساءلت في سرها:

هل تحتمل العيش في الكوخ قريباً من البيت الذي يعيش فيه غرباء؟ هذا هو السؤال الذي لا جواب له الآن.

ذهبتا إلى النوم دون أن تخبر اليسون أمها عن الشيء الآخر الذي يقلقها هذه الأيام، لا يكفيها الهم الذي تحمله فيما يتعلق بالبيت. فالمدرسة التي تعلم فيها اليسون ستغلق بعد فصل الخريف. ومن سبعة تلامذة تعلمهم اليسون هناك خمسة سيغادرون لأنهم أصبحوا فوق العاشرة وهذا يتطلب انتقالهم إلى مدرسة أخرى. أما التلميذان الآخران فسينتقلان إلى مدرسة تقع على بعد خمسة عشر ميلاً. وبما أنه لا يوجد أطفال في أعمار مناسبة لتضمها، فإن الإدارة قررت إغلاقها لمدة أربع سنوات، وربما إلى الأبد. ومع أن اليسون ستحظى قريباً بالنقل إلا أن المدرسة الجديدة ستكون بعيدة جداً. وكل ما تتمناه الآن حدوث معجزة تتمثل في انتقال عائلتين فقط إلى شيلينغ لكل منها ثلاثة أو أربعة أطفال، وهذا كفيل بإنقاذ وظيفتها.

لبثت اليسون بحزن وهي تطفئ نور غرفتها... وبصعوبة حاولت النوم.

كان اليوم التالي نهار الجمعة، يوماً مشمساً ودافئاً وكأن عاصفة الأمس لم تكن قط. وبينما كان الأولاد يلعبون بعد الظهر في باحة المدرسة، شاهدت اليسون مرة أخرى السيارة الزرقاء التي رأتها أمس وهي تتوقف مجدداً أمام منزل فرجوس ماكين. كانت قد نسيت تماماً هذا الضيف الغريب لانشغالها بقضايا البيت والمدرسة الملحة. اقتربت من الحائط الحجري الصغير الذي يحمي الصغار من المنحدر المطل على القرية، وراحت تتأمل السيارة بفضول. خرج رجل من سيارة الفورد القديمة، وقبل أن يعبر الطريق ألقى نظرة خاطفة باتجاه المدرسة، كانت كفيلة بإحراج اليسون لما جعلها تبتعد عن الحائط وكأنها تورطت بالجرم المشهود. ومع ذلك كانت راغبة في معرفة هوية الرجل. لو أنه أحد أبناء فرجوس لكان الخبر قد عمّ القرية فوراً، لكن شيئاً لم يذع بين الأهالي. لم تستطع أن تلمح وجه الرجل

الغريب، ومرة أخرى ألقت نظرة إلى الكوخ الذي يعيش فيه فرجوس ماكين وحيداً، بعد رحيل أبنائه الأربعة اليستير وإيان ومالكولم ونيال. الإبنان الأكبران يعيشان في نيوزيلندا ويبدو أنهما يعملان في تجارة الماشية. أما مالكولم ونيال فقد غادرا القرية منذ سنوات للعمل في السفن التجارية... نيال الأسود كما يسمونه، الابن الأقسى بين أربعة يشكلون عائلة ماكين التي عاشت في نزاع مستمر منذ أكثر من قرن مع عائلة ماكاي. اليسون تتذكر نيال فقط لأنه كان أصغر أخوته، من عمر أخيها آلن تقريباً وزميله في الصف نفسه أيضاً. زميله؟ صحيح، لكنهما كانا يتقاتلان دائماً. فكرت اليسون أن الكراهية موجودة في الدم، بحيث كانت العائلتان على نزاع دائم ومستمر منذ العام ١٨٦٩ عندما كانتا أكبر عائلتين في القرية والأرياف المحيطة بها. ففي أحد أيام ذلك العام، وجد هيكتور ماكين ودومنيول ماكاي نفسيهما يقعان في غرام امرأة واحدة صعدت إلى تأجيج نار الحب والحقد بين الرجلين معاً. وقد تأكد فيما بعد أن الشابين كانا ضحية سحر الرابيل القاسية. ومهما كانت الحقيقة فإن الرجلين قررا ذات يوم التوجه إلى التلال لتسوية المسألة بينهما... فذهبا ولم يعودا أبداً.

بعد عدة أيام، نزل أحد الرعاة من قمة الجبل ليروي قصة مرعبة هو شاهدها. في أحد الأيام، ذهب يبحث عن بعض الأغنام الضالة ناحية الجبل المطل على البحر بانحدار شديد الارتفاع، وهناك شاهد الرجلين يتقاتلان بضراوة ووحشية. كانت الأرض مغطاة بصخور وبعض صخورها تجعل الثبات عليها صعباً... وبينما هو يراقب تزلق الرجلان وأخذا ينحدران صوب البحر وهما مستمران في القتال. وعندما وصل إلى مكان المعركة كان الأوان قد فات. ففي الأسفل، لم يكن يسمع إلا صوت ارتطام الموج بالصخور الحادة وزعيق طيور البحر النائحة على طعامها.

ولما انتشرت قصة الراعي في القرية، تناقلت العائلتان التهم والكلمات القاسية. ومنذ ذلك اليوم انقطعت العلاقات بين الطرفين واندلع الحقد في نفوس الجميع. وبالطبع كانت هناك قصص عن قصة مصرع الشابين تتعلق بتجارة السحر والتهريب وغيرها. لكن أحداً لم يخبر اليسون عن الحقيقة أبداً. لعل الخجل كان يجعل كل طرف يحجم عن المجاهرة

بالواقع. واليسون نفسها لم تتجرأ وهي مطلة على طرح الأسئلة، ودائماً كانت تتساءل عمّا اذا كان اليك قد عرف الحقيقة أم لا.

البيت الذي تعيش فيه اليسون الآن هو بيت العائلة قبل زمن طويل من النزاع. أما فيرجوس ماكين، وهو آخر فرد من العائلة بقي في القرية، فيعيش في كوخ صغير فيه من قبل أبوه وجده. وبيت ماكين، الذي كان يجاور بيت ماكاي، فقد دمر نهائياً في حريق كبير اندلع في العام ١٨٧٢. وتقول الروايات ان ثروة العائلة احترقت في البيت. ولم يبق من كل البيت المحترق إلا بعض الأحجار المحروقة، في حين نمت الأعشاب والشجيرات في المكان برمته.

أحست اليسون بقشعريرة برد تجتاح جسمها بفعل الذكريات الأليمة التي استرجعتها، لذلك توجهت الى الأطفال تشاركهم تمارينهم الرياضية بحماس وكأنها تريد ابعاد الشبح الماضي عن فكرها. لكن عقلها رفض التلهي في الدروس اللاحقة. كانت تشعر بالضيق الشديد. ربما لعلمها بأن المدرسة ستغلق، أو ربما لأن البيت سيذهب الى الأبد مع العائلة. أو ربما للسببين معاً. أصابها التفكير الشديد بصداع حاد استمر بالحاح رغم تناولها قرصين من الأسبرين، وما ان حانت الساعة الرابعة حتى شعرت بالارتياح لأن العمل قد انتهى وبات باستطاعتها ان ترتاح. ومن مقعدها خلف الطاولة راحت تراقب الأطفال وهم يغادرون القاعة بسرور كمن أطلق سراحه من سجن مظلم.

في الجهة الأخرى من الوادي، استطاعت اليسون أن ترى من مقعدها جانباً من البيت، السقف القرميدي وبعض غرف النوم، فعادت اليها كل مخاوفها. فكرت بصوت عالٍ، كيف يمكن ان اتركه؟ فطفرت دموع الحزن والألم الى عينيها. لقد كانت أمها على حق بما تصرفت من عقل وعاطفية. انه لا يستطيعون مواصلة العيش في البيت بالمدخول المتدني المتوفر لديهم. فالحب العميق الذي تشعر به تجاه البيت لم يمنعها عن رؤية اطارات النوافذ المتساقطة أو ترميم السطح الذي يحتاج الى ترميم سريع، حتى الحديقة تحولت الى يباب بعد ان اضطروا الى الاستغناء عن البستاني. حاولت اليسون وأمها جهدهما، لكنهما كانتا تخوضان معركة خاسرة مع المساحات الواسعة التي غزاها اليباس.

تنهدت اليسون بعمق ثم أخرجت مرآة صغيرة وتطلعت فيها الى عينيها. يجب ان لا يرى أحد آثار الدموع عندما تعود الى البيت. حدقت طويلاً في المرآة فلم تر سوى عينين دامعتين. ولكنّ الذين ينظرون اليها يجدون اكثر من ذلك... يجدون الجمال الهادئ، الذي يبرز ملامحها ويجعلها محط أنظار المجتمع الذي تتواجد فيه. كانت شفتاها حمراوين ممتلئتين، وعيناها زرقاوين برموش سوداء كثيفة.

وضعت المرآة في حقيبة يدها وتناولت مشطاً صغيراً سرّحت به شعرها المجعّد من دون انتظام ثم جالت في الغرفة لتتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

زال الصداع الحاد عندما بدأت اليسون سيرها نزولاً نحو القرية. كان عليها أن تعرج على مكتب البريد للحصول على بعض الأوراق الرسمية والطوابع للجمعية التي تراسل العديد من الأقارب في مختلف انحاء العالم. وقد شعرت اليسون بالارتياح وهي تحيي أهل القرية على طول الطريق، مما اعاد اليها بعض السعادة المفقودة.

يقع مكتب البريد الذي يشكل ايضاً محلاً لبيع الخضار الطازجة والبضائع المختلفة، في الطرف الآخر من القرية عن الطريق المؤدي الى بيت اليسون. وكانت قد استدارت قليلاً لتحيي السيد ماكنتر قرب مكتب البريد، ولما اتجهت مجدداً نحو المكتب وجدت نفسها وجهاً لوجه مع رجل خرج لتوه من الداخل. للحظات، شعرت ان توازنها قد اختل، لكن يدين قويتين أمسكتاها... فنظرت الى صاحبهما فوراً. وما ان لمحت وجهه حتى ملأتها الدهشة فتخلت نفسها بعيداً عنه وكأنها تهرب من أفعى سامة. فالرجل الذي اصطدمت به، والذي كان يرمقها بنظرة غريبة، لم يكن إلا نيال ماكين. نيال ماكين الأسود نفسه، وعندما تمالكت نفسها، ابتعدت اليسون مسرعة ودخلت الى مكتب البريد المعتم وقلبها يخفق بشدة لكنها ظلت تشعر أن نظراته تلاحقها من خلال النافذة.

«عشرة مغلفات بريد جوي، يا سيدة فليسون».

يا لها من صدفة، من بين كل ابناء ماكين يعود الأصغر الى بيت أبيه، وهو الابن الذي تبغضه أكثر من الباقين.

حدقت السيدة فليسون بعينيها الحادتين في وجه اليسون وقالت:

« هذه المغلفات يا آنسة ماكاي. هل رأيت من كان هنا قبل لحظات؟ انه نيال، ابن فيرجوس ماكين ».

أجابت اليسون بهدوء:

« نعم لقد رأيته ».

عضت السيدة فليسون على نواجذها وهي تقول:

« كنت قد بدأت أنسى. مضى وقت طويل على رحيل الشاب الى الخارج، بحيث بدا وكأن النزاع قد انتهى ».

أطلقت ضحكة خفيفة ثم تابعت تقول:

« والآن عاد كل شيء ».

ردت اليسون مبتسمة وهي تجاهد كي تبدو طبيعية:

« هذه هي الحياة. أعتقد أن النزاع صار من الماضي ».

وبينما كانت اليسون تدفع ثمن المغلفات قالت السيدة فليسون:

« لا شك في ذلك. في كل حال يجب أن أذهب الآن لارسال هذه البرقية. أعتقد أن الربيع في اميركا الجنوبية، أليس كذلك؟ ».

« الربيع؟ نعم، في البرازيل ».

تناولت اليسون المغلفات وشكرت موظفة البريد وأسرعت هاربة. في الخارج، لم يكن هناك أثر لنيال ماكين، فتنفست الصعداء. كان يكفي أن تراه على بعد يومها، لكن أن تصطدم به أيضاً، فهذا أمر لا يحتمل. أسرعت نحو البيت محاولة أن تعيد الى ذاكرتها تفاصيل آخر مرة شاهدته فيها قبل تسع سنوات.

عادت الأحداث الى ذهنها بوضوح تام. كانت في السادسة عشرة واليك في الواحدة والعشرين. وقد سمح لها أهلها يومها بحضور حفلة راقصة في نادي القرية شرط أن يرافقها شقيقها في طريق العودة. القاعة العامة كانت مكتظة في ذلك المساء الصيفي الدافئ، والجميع يستمتعون بالموسيقى والرقصات المرحة. وكم كان سرور اليسون كبيراً عندما اكتشفت أنها محبوبة من الجميع اذ لم تجلس الى طاولتها إلاّ قليلاً في حين أمضت الوقت كله في الرقص. ومما زاد في سرورها رؤية نيال ماكين في مطلع السهرة وهو منعزل قرب الباب وكأنه غير واثق من نفسه وسط هذا الجميع. كان يرتدي بزة زرقاء مهلهلة فبدا غريباً بين كل هؤلاء الناس. لاحظت اليسون أنه

يراقبها، لذلك قررت أن تراقصه. والجميع يعلم بأنها تستطيع برقتها الى أبعد الحدود.

لماذا تصرفت بدافع الكبرياء؟ لم تكن تفهم سره آنذاك، ففي كل مرة كانت تمر أمام نيال كانت ترى عينيه مسمرتين عليها. وصعداً في الشفق كانت تطلق ضحكاتها عالياً في القاعة وتزداد حماساً في الرقص. وقد بات المكان بالنسبة لها قطعة من أرض الأحلام في ليلة لا تنسى.

وكما في قصة سندريللا، كان لا بد لليل أن ينجلي. وعندما قررت اليسون العودة الى البيت بحثت عن شقيقها لترافقه، لكنها لم تعثر عليه، وظلت فترة بانتظار عودته. كانت خلالها تلوم نفسها لأنها لم تنتبه لوجوده أكثر. وبينما هي هكذا، سمعت صوتاً من خلفها:

« هل تريدين أن أوصلك الى البيت؟ »

فالتفتت لتجد شاباً تعرفه من القرية المجاورة اسمه جوني جوردون

« لا، شكراً لك ».

بدأت تشعر بالانزعاج. فالسماح بالرقص في قاعة مزدحمة شيء، والسير الى البيت في هذا الظلام مع شخص سمعته غير جيدة شيء آخر. أضافت قاطعة عليه:

« سألاقي أخي في منتصف الطريق ».

ودون أن تفكر، لوحت له بيدها وسارت باتجاه البيت وهي تتساءل: أين أنت يا اليك؟

وما ابتعدت عن القاعة خففت اليسون من سيرها. لم تكن خائفة من الظلام، بل هي مستمتعة بهذا المساء الصيفي. كان عقلها مشغولاً بترتيب بعض العبارات التي ستقولها لأخيها ساعة تراه عندما احست بوقع خطوات شخص خلفها، فبدأت تسرع في السير عدواً. وصلت الى طريق متعرج يؤدي الى الحقول المنبسطة بينها، فدخلته مسرعة. كسرت أحد أظافرها عندما قفزت فوق جدار ريفي صغير يقع على حدود اراضي البيت. ومن ثم وجدت نفسها وسط أشجار الصنوبر التي راحت أغصانها تعلق في شعرها وثيابها. ثم سمعت فجأة صوتاً جعلها تتوقف وتستمع الى حيث بدا أن عراكاً عنيفاً يدور بين شخصين في ظلمة الليل. وجاءتها أصوات لكمات وصرخات وصوت ارتطام جسد بالأرض، ثم أنين ألم من أحد

المعارك . . . وأخيراً وقع خطوات شخص يعود إلى الطريق العام. هل هذا أليك ؟ هل يعقل ألا يكون شقيقها قد شاهد شخصاً ما يلاحقها فتعارك معه ؟ كانت هذه الأسئلة تلح على ذهن اليسون وهي تنتظر في مكانها. لكن أحداً لم يأت، ولم تعد تسمع أية أصوات.

« أليك ؟ »

نادت اليسون أولاً بصوت خافت ثم رفعت صوتها أكثر عندما لم تسمع أي جواب. وبسرعة هرعت إلى حيث سمعت العراك، لكنها توقفت فجأة عندما لمحت عدوها اللدود نيل ماكين بالقرب من جدول مائي في منطقة مكشوفة وهو يحرك قبضته. وعلى الفور انقضت عليه وقد تذكرت المعارك الدائمة بينه وبين أخيها.

صرخت في وجهه بغضب شديد :

« ماذا فعلت بأخي ؟ »

استدار نحوها بهدوء، وتذكرت اليسون كيف أنه بدا آنذاك مختلفاً [illegible] بعد [illegible] الشاب الخجول الذي ظهر في المدرسة [illegible] الآن [illegible] ناضجاً [illegible] ولاحظت اليسون [illegible] شمالاً [illegible] وهو يقول :

« لم أفعل شيئاً بأخيك. الذي هرب كالأرنب الآن هو حبيبك جوردون وقد كان يلاحقك طوال الطريق ».

« لا أصدق كلامك هذا ».

لكنها لاحظت قطرات من الدم على ذقنه نازفة من جرح في شفته السفلى.

ردّ وهو يمسح الدم بمنديله :

« هل تعتقدين أنني أهتم بما إذا كنت تصدقين أم لا ؟ »

« ماذا تقصد بكلامك هذا ؟ »

أجابها بحدة :

« لقد أصبحت في السادسة عشرة، وعليك أن تعرفي معنى الكلام ».

عبست اليسون تقاطيعها بغضب وقالت :

« كيف تجرؤ على هذا الكلام. لو أن أليك هنا لجعلك . . . »

رد بضحكة ساخرة :

« لكنه ليس هنا. هل تعتقدين أني أخاف منه ؟ كان عليك أن ترى ماذا فعلت بجوردون قبل قليل ».

تظاهرت اليسون بالهدوء وقالت :

« هذا كل ما تفكر به. القتال فقط. فأنت تفتعل المعارك دائماً ».

« هذا غير صحيح. ليس دائماً ».

اقترب نيل من اليسون وحاول ملامسة وجهها، لكنها انتفضت ولطمته على يده الممدودة وهي تقول :

« إياك أن تلمسني. إياك أن تحاول أبداً ».

رد بسخرية دون أن يبدي أية علامة تأثر :

« إنك لا تمانعين في أن يلمسك الآخرون خلال الرقص. والحقيقة أني أعتقد أنك كنت تستمتعين بذلك ».

وفجأة انقض عليها، فأخذها على حين غرة بين ذراعيه . . . وبدون أن تدري وجدت نفسها في عناق طويل معه. وما أطلق سراحها، ظلت مصدومة لحظات قبل أن تستعيد وعيها وتوجه لطمة قوية إلى وجهه. [illegible] لكنه ظل ممسكاً [illegible] وكأنه يقرأ أفكارها وقال :

« أنت آمنة معي. فأنا لا أضرب الفتيات، لكنني أيضاً لا أحب أن أضرب مني ».

« دعني أذهب ».

ثم تذكرت فجأة شيئاً آخر فأضافت قائلة :

« وأنت أيضاً كنت تلاحقني ».

وكأنها تذكرت ما يمكن أن تجره هذه العبارة، فأخذت تحرك ذراعيها بشدة محاولة التخلص من قبضته.

أمسك ذراعيها بقسوة وقال :

« صحيح، لكنني كنت أقصد هذه الناحية أساساً. فقد كنت أرغب في اصطياد بعض سمك التروتة قبل الذهاب إلى البيت وهكذا ».

ونقل نظره بين الجدول المائي وبين وجه اليسون وكأنه يتحداها. لم

تستطيع أن تواجه نظراته، لذلك حولت وجهها إلى ناحية أخرى. هذه هي المرة الأولى التي يتواجهان فيها، فالنزاع العائلي كان يقف حاجزاً بينهما. إنها تكرهه لأنه من العائلة المعادية، وتكرهه لأنه أساء إليها مرة، وتكرهه لأنه عاملها بالقوة. هذا هو عناقها الأول. لم تكن تتصوره على هذا الشكل وليس مع عدوها العائلي.

قالت بعد تردد محاولة أن تبدو حازمة وجافة:

«لكن اصطيادك السمك يعتبر اعتداء على أملاك الغير».

جلجلت ضحكة نبيل وهو يقول:

«أملاك الغير؟ حسناً يا آنسة ماكاي، لن تكون هذه هي المرة الأولى التي اعتدي فيها على أملاك الغير ولن تكون الأخيرة أيضاً».

حلت الدهشة محل الخوف في نفس اليسون التي أدركت أنه لن يؤذيها. قالت له باستغراب:

«ماذا تعني بذلك؟»

رد عليها ساخراً:

«ماذا تعني بذلك؟ هل أنت صماء؟ لقد قصدت هذه الناحية مئات المرات، وكذلك أخي. وتأكدي أن البستاني ووالدك وكلابكم لم يعرفوا أبداً».

قالت:

«أنا سأخبرهم وسيطالب باعتقالك».

«آه لقد جعلتني أرتجف من الخوف جراء ذلك، وسوف تتحولين إلى أضحوكة القرية فأين الدليل؟»

«سأخبرهم كما أخبرتني به».

هز رأسه بتهكم:

«هل ستقولين بعد اليوم، وتتركينهم يسألونني كيف حصلت على هذا الجرح؟ ماذا تريدينني أن أخبرهم؟ هل أخبرهم أنك تعاركت معي؟ أم أخبرهم الحقيقة؟»

ارتسمت البسمة على شفتيه في حين صمتت اليسون فجعلتها وهي تشعر بالحقد أكثر فأكثر. يا له من وقح، إنه يملك جواباً لكل شيء، وهي تضيع وقتها في الحديث معه. رفعت رأسها ووقفت في وجهه بصلابة وعناد:

«هيا خذ أسماكك وارحل. لا بد أنك بحاجة إلى مكافأة على التقاطك لي، سمك التروتة هو المكافأة».

أدركت اليسون أن كلامها صدمه، وجاءت كلماته لتؤكد ذلك:

«من المؤسف أن أحداً لم يستطع أن ينزلك من عليائك أيتها المتمردة».

أجابته وهي تستدير مواصلة السير:

«من أنت؟ إنك تضحكني فعلاً».

«ربما أستطيع ذلك في يوم من الأيام».

ركضت اليسون باتجاه البيت، ولم تخبر أحداً بما حدث حتى ولا أليك الذي كان يوصل إحدى الفتيات إلى بيتها، ولذلك لم يقل لأبيه إنه لم يوصلها إلى المنزل.

عبرت اليسون الآن الجدول ثانية، وقد ملأت الذكريات القديمة رأسها. لا شك أن نبيل قال الكلمات القاسية الأخيرة دون أن يعنيها، إلا أنه بعد أيام من حادثة الجدول غادر البيت ولم تعد تراه أبداً.

كان الفرق واضحاً جداً بين الشاب المشاكس الذي شاهدته لآخر مرة عند الجدول وبين الرجل الذي اصطدمت به بعد ظهر هذا اليوم. فلقد تغيّر تماماً، كتفاه أصبحتا أعرض وبنيته أكثر قوة. فالشاب ذو الطباع الحادة أصبح رجلاً ناضجاً، ووجهه الساحر بات يحمل ملامح السنوات وتجارب الأيام.

واصلت اليسون سيرها نحو البيت، وهي تدرك أن عمي سيهتم كثيراً عندما تخبره عن هوية الرجل الذي التقته اليوم، بعكس أمها التي كانت تضيق ذرعاً بإصرار أليك على معاداة نبيل، ولا تفهم لماذا يستمر النزاع في التأثير على حياة العائلتين بعد هذا الزمن الطويل.

لكن عندما دخلت اليسون البيت، طارت من ذهنها كل أحداث اليوم بمجرد رؤية التعبير الذي علا وجه أمها، التي أسرعت لتستقبلها فور سماعها صوت فتح الباب. كان في الجو نوع من القلق، لذلك سألت اليسون على الفور:

«أي خطب في الأمر؟»

«البيت تنوي الفصل مع عرض ممتلكات الراغب في شراء البيت. وقد أبلغني أنه آت لزيارتنا غداً».

خفق قلب اليسون بشدة لدى سماعها النبأ، ونظرت الى أمها بأسى واضح. كان هناك شيء آخر في نفس أمها. قالت لها:

«حسناً فعلت».

«شيء آخر يا اليسون».

«نعم».

«أنا... لا شيء».

لكن يد الأم التي ارتعشت الى خدها عكست طبيعة الاضطراب التي تعانيه هذه السيدة.

«أمي، ماذا في الأمر؟ هل أحدث التفكير بقرارك؟»

«لا، لا... إني... إني لست على ما يرام».

ركضت الأم باتجاه غرفتها وكأن أحداً يطاردها. وقفت اليسون ترقب المنظر وقد أحست بأن أمها مصابة باضطراب في الأعصاب، لكنها لم تستطع أن تحدد سبب ذلك.

استيقظت اليسون صباح اليوم التالي وقلبها مثقل بالهموم والأحزان. وطوال الوقت كانت تحس كمحكوم بالاعدام ينتظر لحظة تنفيذ الحكم. لم تستطع أن تنام جيداً أمس وقد انعكس القلق دوائر سوداء وحمراء حول عينيها.

الرجل الراغب بشراء البيت سيأتي الساعة العاشرة. عند الساعة التاسعة والنصف اكتفت اليسون باحتساء فنجان من القهوة لأن نفسها كانت رافضة للأكل. وسرعان ما وجدت نفسها عاجزة عن الانتظار ولذلك قررت الذهاب هي والكلب في نزهة قصيرة.

عبرت المرج الى حيث اليسون عندما توقفت في الحديقة تتأمل البيت الضخم الذي يحمل كل الذكريات. لقد ولد ابوها واجدادها هنا، وكذلك هي وأبيك. ولم تكن لتحتمل فكرة انتقال البيت الى أناس غرباء، لكن المطلوب معجزة للابقاء عليه.

سارت اليسون ببطء مع الكلب وسط الاشجار والاعشاب البرية دون اتجاه محدد. ولعل ذكريات الأمس قادت خطاها فوجدت نفسها تقصد الجدول المائي. عبرت الكثير من الاشجار الكثيفة المتشابكة قبل أن تصل الى الجدول حيث وقعت تلك الأحداث المؤلمة قبل تسع سنوات. وما ان

أطلت على المكان حتى شهقت بصوت خافت عندما رأت شخصاً يقف عند طرف الجدول. التفت الرجل نحوها. لم يكن شبحاً مرعباً بل هو رجل من لحم ودم أكثر نضجاً من المرة السابقة التي رأته فيها في المكان نفسه. المكان نفسه والشخص نفسه... لكن بعد تسع سنوات. هناك وقف نيال ماكين يراقبها، وكأنه كان ينتظر مجيئها الى الجدول!

٢ ـ الطريق الى القلب

سارت اليسون بخطء نحو نيال وهي تجر الكلب الى جانبها. أحست برغبة طفولية في طرده من المكان، لكنها تذكرت أنها لم تعد طفلة. ومع ذلك لا شيء يدعوها للترحيب به. لذلك قالت له عندما اقتربت منه ما فيه الكفاية:

« ماذا تفعل هنا ؟ »

« أتجول في هذه الطبيعة وأفكر فقط »

كان جوابه هادئاً ولا مبالياً تماماً كالتعبير الذي علا عينيه. كان هذا الرجل، بهدوئه وسكونه، نقيض الشاب ذي الطباع الثائرة الذي تتذكره اليسون. لقد أصبح رجلاً ناضجاً وهو يدرك هذه الحقيقة تماماً. على كل حال انها الآن في مواجهة معتد على أراضيها، لذلك قالت له:

« أما زلت تستمتع بالتسلل الى اراضي الغير؟ »

« أنني فعلتها يا آنسة ماكاي »

تعمّد نيال أن يصمت قليلاً وكأنه يريدها أن تتذكر الماضي بكل تفاصيله، ثم تابع قائلاً بصوت ناعم:

« أنا مدعو الى هذا البيت »

« مدعو؟ لا أصدق ابداً... إلا »

توقفت اليسون عندما لمحت الابتسامة العريضة على وجهه:

« أنا مدعو من قبل أهلك. ألم يخبروك عن حضوري ؟ »

« لا. لم... انك لست »

لم تستطع أن تكمل عبارتها، واحتاجت الى نفس عميق كي تضبط

أعصابها. فاذا كان ما يقوله صحيحاً، فهذا يعني أنه الغريب الآتي للاطلاع على البيت بقصد شرائه.

تداركت الوضع وأضافت تقول:

« أتريد أن تقول انك الشخص الراغب في شراء البيت ؟ »

نظر الى ساعته وهو يقول:

« أجل. جئت الى هنا أبكر من الموعد، لذلك قررت أن آتي من هذا الطريق. في كل حال هذا سيوفر عليك مشقة تعريفي الى النقطة على أساس أني شاهدتها بنفسي الآن، أليس كذلك ؟ »

أحست اليسون بنغمة ساخرة في كلماته التي عزفت على وتر حساس في ذاكرتها.

ردّت الهجوم الساخر بأقسى منه قائلة:

« أنا متأكدة أنك تعرف كل شبر فيها »

مع ذلك كانت الصدمة ما زالت مسيطرة عليها. الآن فقط أدركت سبب توتر أمها الليلة الماضية، فقد عرفت أنها ستثير غضب اليسون اذا ما كشفت هوية الشاري. ربما بعد ستتفاهم مع أمها حول هذه المسألة، أما في هذه اللحظة فعليها أن تتعامل مع الواقع الجديد. في هذه الأثناء كان الكلب يدور حول نيال غير متأكد ما اذا كان صديقاً أو غريباً، لكن بدأ مداعبة من الرجل جعلت الكلب يهدأ ويجلس عند قدميه. فجأة صرخت اليسون:

« راسبي، تعال الى هنا »

كانت قد بدأت تشعر بالازعاج من وجوده هنا، لذلك استدارت عائدة الى البيت وهي تتمنى أن يكون الأمر كله مجرد حلم، أو أن يغير نيال رأيه ويرحل بعد اختفائها.

سمعت وقع أقدام خلفها، ثم جاء صوته

« قاربت الساعة العاشرة، وسوف أتوجه الى البيت الآن »

انقبض شيء في صدر اليسون، فالتفتت لتجده خلفها تماماً. قالت:

« انتهت النزهة. بعد هذه الرحلة السخيفة عليك أن ترحل. انني أفضل الموت على أن يذهب البيت اليك »

تقلصت عضلات وجهه فجأة، لكن صوته كان هادئاً وناعماً:

« أمك هي التي ستقرر الأمر، وليس أنت ».

حدقت اليسون مباشرة في عينيه وردّت بحدة :

« أمي تريد بيع البيت، ولكنها لن تقدمه لأحد مقابل ماله، اذا كنت تفهم ما أقصده ».

التمع وجه نيال بالغضب الشديد، لكن اليسون لم تكن تهتم لشيء :

« لذلك لا تعتقد أنك تستطيع اضاعة وقتنا. فأنت تريد فقط الشماتة بوضعنا المتعثر ».

« لمعلوماتك فقط، أنا أملك المال اللازم لشراء البيت ولاجراء الاصلاحات الضرورية فيه، فلقد سمعت انكم تركتم البيت في حالة يرثى لها خلال السنوات القليلة الماضية. وكان من الأفضل ان تستعملي حيلك للبيت للمحافظة عليه من التداعي ».

شعرت اليسون وكأن خنجراً حاداً يضرب صدرها مع كل كلمة أطلقها. كانت عاجزة عن الرد خاصة أنها تدرك في أعماقها أنه يقول الحقيقة المحرجة. كان عليها أن تدرك ذلك منذ البداية، فالثروة زادت من تباعد شخصية هذا الرجل عن شخصية الشاب الراعي الذي عرفته قبل سنوات. صحيح ان طباعه ما زالت حادة، لكنه مسيطر على نفسه بشكل أثار الخوف في نفسها. وبسبب هذه العوامل كلها، فانه خصم عنيد وخطر عليها أن تواجهه بحذر. ولن تؤذي إلا نفسها إذا ما فقدت أعصابها أمامه.

تنفست بعمق وهي تجاهد للمحافظة على أعصابها :

« إنه في حالة رثة، فلماذا أنت مهتم بشرائه ؟ ».

« كنت مهتماً به طوال حياتي. لقد صممت على هذا قبل مغادرة القرية وقلت عندما أصبح ثرياً بما يكفي، ويصبح البيت للبيع .. سأبتاعه ».

رفعت اليسون وجهها متحدية :

« لنفترض أن أمي رفضت البيع ؟ ».

نظر اليها بتعجب وقال :

« ولماذا ترفض ؟ انكم لا تستطيعون تحمل الوضع أكثر من ذلك. والمال الذي أقدمه لها مناسب. انها ستقبل البيع ».

« ربما لكن ليس لك ».

ردّ بقسوة وصراحة :

« ليس هناك احد سواي يرغب في الشراء. لا احد .. والمتسولون لا يمكن ان يختاروا ويحددوا ».

انتفضت اليسون بشدة :

« كيف تجرؤ على هذا الكلام ؟ ».

« لم ابدأ بعد. وسأضطر الى استعمال كلام اكثر قسوة، لأواجه فظاظتك التي لا تحتمل ».

من الواضح انه غاضب جداً، بالاضافة الى شيء آخر كانت اليسون تجهله. يبدو عليه أنه يستمتع بتعذيبها. لذلك قررت الانصراف فوراً دون أن تعطيه الفرصة لزيادة الأوضاع سوءاً.

استدارت دون أن تنبس ببنت شفة وبدأت السير نحو البيت. ولما لم تسمع حركة خلفها داهمتها رغبة لا تقاوم بالالتفات الى الخلف. فرأته واقفاً بهدوء .. يراقبها وهي تبتعد عنه.

تساءلت اليسون وهي تراقب العجوز المنهمكة في اعداد الغداء :

« وماذا يمكننا أن نفعل يا جيني ؟ ».

أجابت جيني باستسلام :

« وماذا نستطيع أن نفعل يا صغيرتي. فأمك لا تملك أي خيار، على كل، كان يجب أن تكوني معها في الصالة الآن ».

هزّت اليسون رأسها رافضة وقالت :

« صدقيني لا أستطيع. لا أريد حتى أن أكلمه، فكيف مجالسته واحتساء القهوة معه وكأننا صديقان قديمان ؟ ».

قالت جيني بابتسامة عريضة :

« كنت متأكدة أنك ورثت بعض صفات عائلة ماكاي. لكن الحقيقة أن نيال أصبح رجلاً ناضجاً ووسيماً ولبق المظهر، تماماً كما كان ابوه في شبابه ».

كادت اليسون أن تسكب القهوة على ثيابها عندما سمعت هذه الكلمات. وتساءلت باستنكار :

« تقولين وسيم ؟ إنه أشبه بفرسان القدر. كانوا يلقبونه بنيال الأسود والواقع أن الاسم ينطبق عليه الآن اكثر من أي وقت مضى ».

« ربما كنت على حق في اعتقادك هذا. لكنك لا تستطيعين انكار أنه أصبح رجلاً قوي البنية والشخصية. ولا شك أنه حطم العديد من القلوب خلال رحلاته الطويلة حول العالم ».

عادت اليسون من جلستها وكأنها تذكرت شيئاً مهماً:

« جسي، كيف تفسرين حصوله على المال الكافي لشراء البيت؟ لقد أمضى السنوات الماضية في البحرية التجارية، أليس كذلك؟ ».

« أعرف أنه عمل في البحرية، مسألة حصوله على المال تبقى سراً بالنسبة الي أيضاً. والغريب أنني لم أسمع في القرية شيئاً عن هذه المسألة. في كل حال، المعروف عن الرجل العجوز أنه لا يتحدث أبداً عن أبنائه ».

قطع قرع الجرس في الزاوية حديثهما، فالتفتا الى مصدره. قالت جسي بهدوء:

« الجرس لك إنها الكسوة. قالت أمك انها ستقرعه عندما تريدك الى جانبها ».

نهضت اليسون من مقعدها وقد عاد اليها خوفها وتوترها. ومع أنها كانت في بيتها الذي عاشت فيه طيلة حياتها، إلا أنها كانت ترتجف لمجرد التفكير بأنها ستدخل الى الصالة لمقابلة الرجل الذي تكرهه. وأكثر ما يزعجها ذلك الشعور بالعجز عن فعل أي شيء لمواجهته.

سارت عبر القاعة الواسعة وفتحت باب الصالة. كانت أمها تجلس في مقعدها قرب المدفأة مرتدية ثوباً بسيطاً بني اللون، وسترة صوفية خفيفة من اللون نفسه. وللحظة شعرت اليسون بالشفقة تجاه هذه المرأة التي اضطرت لاستضافة عدوهم اللدود بسبب وضعهم المالي الرديء. ثم نظرت باتجاه الرجل الواقف قرب النافذة، وفي اللحظة ذاتها التفت الرجل فالتقت نظراتهما حاملة مشاعر العداء الصامت والمتبادل.

بدأت الأم حديثها وقد مدت يدها الى اليسون التي أمسكتها بيد باردة ومرتجفة:

« عزيزتي اليسون، أريدك أن تأخذي السيد ماكين في جولة لرؤية البيت والأراضي الملحقة به ».

حاولت اليسون التدخل فقالت:

« لكن يا أمي... »

إلا أن ضغط الأم حمل رسالة واضحة لأليسون. قالت السيدة ماكاي مخاطبة نيال:

« هل أنت مستعد الآن؟ »

هز نيال رأسه مخاطباً الأم ومتجاهلاً الابنة كلياً:

« اذا كان ذلك مناسباً لك يا سيدة ماكاي ».

« بالطبع ».

حاولت الأم أن تتكلف ابتسامة إلا أنها عجزت. وقد أدركت اليسون أن أمها تعاني ضغطاً نفسياً كبيراً، وتساءلت عما اذا كان نيال قد أزعجها ببعض الكلمات النابية.

سألت أمها بصوت خافت:

« هل أنت على ما يرام يا أمي؟ »

« لا شيء يا عزيزتي، أريد فقط بعض الوقت للتفكير ».

تساءلت اليسون في سرها، بماذا تريد أن تفكر؟ وقبل أن تفقد المبادرة مجدداً، استدارت نحو الرجل وقالت له:

« هل يمكن أن تنتظرني في القاعة؟ سأكون معك بعد لحظات ».

خرج نيال بهدوء وثبات من دون أدنى تردد. وما أن أغلق الباب خلفه حتى ركعت اليسون الى جانب أمها وقالت بلهفة:

« ما الخطب. هل كان فظاً معك؟ هل حاول أن يجبرك على خفض السعر؟ »

هزت الأم رأسها وعلامات التعب والارهاق بادية على محياها:

« كلا يا اليسون، ليس كما تتصورين. لم يتفوه بأية كلمة في غير مكانها. فقط أريد اعادة التفكير في بعض الأمور. وأعدك بأنني سأحدثك بالأمر لاحقاً. وأرجوك يا ابنتي، من أجلي أنا على الأقل، أن تحاولي عدم اظهار كرهك له بشكل فاضح ».

ردت اليسون بمرارة شديدة:

« هل تتوقعين مني أن أتعلق في الجولة وأنا أمسك يده بيدي؟ »

أجابتها الأم بابتسامة كبيرة:

« لا أعتقد أنه يتوقع ذلك. لكن حاولي الاعتدال، فهو ليس سيئاً الى الحد الذي تتصورينه ».

ابتسمت اليسون لكلمات قاسية كانت ستقولها بحقه، واكتفت بالقول :
« حسناً، سأحاول جاهدة. هل تعتقدين أنه سيشتري ؟ ».
هزت الأم رأسها بأسى :
« أعتقد أنه سيشتري. أنا آسفة، لكن هذه هي الحقيقة. وأكون مغفلة جداً إذا رفضت عرضه ».
نهضت اليسون وتوجهت إلى الباب وقدماها لا تكادان تحملانها.
ما كانت تظن أن البيت متداع إلى هذا الحد إلا عندما رأته من خلال عيني رجل غريب. فقد راقبته وهو يدقق في النوافذ والجدران والسقوف والأرضيات في غرف النوم السبع التي أدخلته إليها. أحست بالحزن العميق لحالة البيت المزرية خاصة أن الذي يراها هو عدوها اللدود.
أخرج نيال من جيب سترته دفتراً صغيراً وراح يسجل عليه بعض الملاحظات وهما يواصلان جولتهما. لم تكن اليسون في مزاج يدفعها للحديث المسهب، بل اكتفت بتعليقات مقتضبة حول بعض الأمور الضرورية. وكانت الأسرة والأغطية الحريرية في الغرف غير المستعملة خير شاهد على مجد زائل تمتعت به هذه العائلة قبل سنوات.
توقفت اليسون عند أسفل السلم المؤدي إلى العلية وقالت :
« هل تريد رؤية الغرف الصغيرة في العلية ؟ »
« إذا لم يكن عندك مانع ».
كان هناك شيء غير عادي في تصرفاته. انتظرها حتى تفتح الطريق أمامه... وعندها أدركت اليسون أنه ربح المعركة لا محالة.
في هذه الغرفة الصغيرة الرطبة، تراكمت كل الأغراض القديمة التي استغنت عنها العائلة مثل الكتب والمجلات واللوحات الباهتة وألعاب الأطفال وغيرها. فكرت اليسون أن كل شيء هنا يجب أن يرمى لأن الكوخ لن يستوعب كل هذه الذكريات. عبر نيال وسط هذه الفوضى العارمة وألقى نظرة من خلال النافذة ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :
« أعتقد أن هذا يكفي ».
ثم استدار نحوها قائلاً :
« كم غرفة في العلية، غير هذه ؟ »
اجابت :

« أربع غرف، كلها مثل هذه ».
سجل بعض الملاحظات في دفتره، وقال :
« حسناً، سنراها في وقت آخر. يمكننا أن ننزل إلى الطابق الأرضي الآن ».
عاد إلى حيث كانت اليسون ثم سارا معاً.
استغربت اليسون عبارته الأخيرة خاصة أنها لاحظت تعابير الارتياح على وجهه وهو يتفحص العلية وكأنه عثر على شيء يريده. لكن ما هو هذا الشيء ؟ لا أحد يحتاج العلية إلا إذا كان يملك عائلة كبيرة. لكنه رجل غامض على أي حال. أدخلته إلى كل الغرف في الطابق الأرضي باستثناء الغرفة التي كانت تجلس فيها أمها مع الكلب. وعندما ادخلته إلى الغرفة الزجاجية الخاصة بالنباتات قال بإعجاب واضح :
« هذا شيء جميل. من الذي يهتم بكل هذه النباتات ؟ »
ردت اليسون باقتضاب :
« أنا. والآن سأريك غرفة الرسم. من هنا الطريق ».
عبر ممراً واسعاً يجاور الغرفة الزجاجية ويصل مباشرة إلى الغرفة المفضلة عند اليسون، والتي تستعملها والدتها للرسم. كانت الغرفة قد أضيفت إلى البيت قبل سنوات وهي مبنية من الحجر الناعم الصلب وفيها نوافذ عديدة بحيث يطغى عليها النور طيلة اليوم. وفي كل مكان، كانت اللوحات ترتاح على الجدران والمقاعد والكراسي والطاولة، ومن بينها لوحة الوادي لم تجف ألوانها بعد. وقف نيال أمام هذه اللوحة يتأملها، فأحست اليسون برغبة في طرده من المكان... لكنها وقفت في مكانها بصمت في حين كانت يدها تضغط بغيظ مكتوم على مقبض الباب. وسرعان ما شعرت بالتعب والإرهاق الاضطراري إذ كبتت كل الرغبات العدائية ضده. بعد دقائق التفت إليها قائلاً :
« والآن، هل يمكننا رؤية الحدائق ؟ »
أجابته بقسوة هادئة :
« لقد شاهدتها من قبل، أليس كذلك ؟ ».
قال وملامح بسمة ساخرة تعلو شفتيه :
« لم أشاهدها كما يجب لأن زيارتي لها كانت ليلاً. أريد أن أراها في ضوء

النهار، بما في ذلك التحريج والكنس».
رمقته اليسون بنظرة حادة وقالت:
«لكنها لم تستعمل منذ زمن طويل».
«ومع ذلك أريد أن أراها إذا أمكن».
وكانت العبارة الأخيرة دليلاً على أنه مصمم على تنفيذ كلامه. ابتلعت اليسون ريقها بضيق بينما فتح لها الباب لتتقدم الطريق.
انتهى الكابوس بعد نصف ساعة عندما عادا معاً الى البيت. كانت اليسون متوترة ومتعبة بحيث تعثرت على السلم الحجري المؤدي الى باب البيت. وبسرعة مد يده يسندها، فأحست بلمسته تحرق ذراعها. استعادت توازنها على الفور وابتعدت عنه قائلة:
«شكراً لك».
أحمر خداها عندما شاهدت نظرة التهام في عينيه أحست بأنه يكرهها بقدر ما تكرهه هي. وتساءلت في سرها عما اذا كان يتذكر الحادث الذي وقع بعد حفلة الرقص قبل تسع سنوات... ولذا بها تتذكر عبارته الأخيرة التي أطلقها في ساعة الغضب:
«انك بحاجة لمن ينزلك من عليائك».
هل تكون هذه هي طريقته في الانتقام منها؟ رمقته اليسون بسرعة وهي تفتح الباب الأمامي، فالتقت عيناه عينيها في لمحة عابرة كانت تكفي لبث الرجفة في أوصالها. أخذت نفساً عميقاً وقد أحست بالخوف القاسي منه. إذا كان ينوي الانتقام فعلاً، فانه يفعل ذلك بطريقة مرعبة للغاية ستستمر طيلة حياتها. فهي تدرك أنها لن تنسى أبداً الشخص الذي حرمها من بيت أبيها وأجدادها.
اعتقدت اليسون أن الأسوأ قد انتهى بعد انتهاء الجولة التفقدية، لكن الأسوأ فعلاً حدث عندما عادا معاً الى حيث تنتظر الأم. رفعت السيدة ماكاي نظرها الى نيال متجاهلة ابنتها وسألته:
«هل قلت لها شيئاً؟».
هز رأسه بالنفي وأجاب:
«لا من الأفضل أن تخبريها أنت بالمهمة يا سيدة ماكاي».
سألت اليسون وقلبها يخفق بشدة:

«ماذا في الأمر؟ هيا أخبراني».
اقترب نيال حتى أصبح بمواجهة السيدة ماكاي وقال:
«العرض قائم يا سيدة ماكاي. قولي كلمة الموافقة وسأذهب الى المحامي صباح يوم الاثنين».
«أمي أرجوك، قولي أن تقولي أي شيء، أخبريني عما كان يجب أن يبلغني إياه».
كانت اليسون متقطعة الأنفاس وكأنها وصلت لتوها من سباق سريع. فهي تدرك أن اللحظات القليلة المقبلة ستحمل قراراً حاسماً لا رجعة عنه في ما يتعلق بالبيت.
نظرت الأم الى ابنتها بحزن عميق وقالت:
«السيد ماكين يريد أن يحول البيت الى فندق».
«يا الهي... لا».
أغمضت اليسون عينيها، وتذكرت على الفور الملاحظات العديدة التي دونها في مفكرته خلال الجولة... الآن عرفت لماذا. بيتها الذي عاشت فيه طيلة حياتها سيتحول الى فندق يؤمه الغرباء من كل حدب وصوب، يتجولون فيه، يتنزهون في حدائقه ويصطادون السمك في الجدول الخاص بالعائلة...
«لا يمكنك أن تفعل ذلك... لا تتركه يستولي على البيت».
نظرت اليسون اليه بغضب، وتمنت للمرة الأولى في حياتها أن تكون رجلاً، لأنها أرادت أن تحطم غطرسته وتعامله بالطريقة الوحيدة التي يفهمها... القوة.
أضافت وهي ترتجف:
«لا تبيعيه يا أمي... سوف نجد شارياً آخر».
استدار نيال نحوها وعلى وجهه عبارات الاشفاق التي سرعان ما اختفت لتحل مكانها ملامح تبدو لا معنى لها:
«ربما من الأفضل أن أخرج قليلاً إذا ما كنتما تريدان مناقشة الموضوع».
قالت الأم:
«لا ضرورة لذلك. وأنت يا اليسون الزمي الهدوء أرجوك».

جلست اليسون بالقرب من أمها وجاهدت كي تحبس دمعات تجمعت في عينيها بحرارة. لا يمكنها ان تفعل شيئاً الآن، فالأم قد أعلنت قرارها وانتهى الأمر. تبعت اليسون متعوثة تراقبها. قالت الأم :

« أرجوك أن تجلس يا سيد ماكين، فهناك بعض الأمور التي يجب أن نناقشها ».

جلس في المقعد المقابل لمقعديهما، وسرعان ما جاء الكلب وربض عند قدميه. مد نيال يده لمداعبة الحيوان الساكن وقال :

« الكوخ الذي تريدون الاحتفاظ به، هل هو ذلك الذي يقع قرب الوادي ؟ ».

« نعم، انه مكان منفصل. وأعتقد أننا نستطيع انشاء ممر يؤدي اليه من الطريق العام ».

« كما ترغبين فالأمر غير مهم بالنسبة إليّ، كما يمكنكم استعمال الأراضي والحدائق اذا أردتم ». تردد قليلاً قبل أن يضيف :

« أما بالنسبة لغرفة الرسم فأنا لا أريد أن آخذها منك. فاذا رغبت في الاستمرار باستعمالها... فهي لك ».

سمعت اليسون شهقة الدهشة وعدم التصديق التي اطلقتها أمها قائلة :

« ماذا ؟ هذا لطف منك. هل أنت متأكد ؟ ».

« كل التأكيد. نستطيع أن نفتح باباً مستقلاً للغرفة بعد أن نغلق الباب الذي يربطها بالبيت، بحيث لا يصل اليها الزائر... وبالطبع سيكون المفتاح معك ».

« شكراً لك. فالكوخ لن يتسع لكل اللوحات وأدوات الرسم... وكنت افكر فيما يمكن أن أفعل بها ».

قالت اليسون لنفسها بمرارة: انها تتصرف وكأنه أسدى اليها معروفاً كبيراً.

« وماذا عن الجزيرة يا سيدة ماكاي، متى أستطيع ان أراها ؟ ».

صرخت اليسون :

« اني لا أظنك ستضمين الجزيرة أيضاً ».

نظرت اليها أمها بتثاقل :

« طبعاً. فالجزيرة ملحقة بالبيت كما تعرفين. وبالاضافة الى ذلك، لا

أعتقد أننا بحاجة اليها ».

« أنا أذهب اليها كثيراً، وأنت ترسمين هناك... ».

« أنا متأكدة من أن السيد ماكين لن يمانع في ذهابنا الى الجزيرة بعد بيعها ».

ثم التفتت الى نيال وتابعت تقول :

« المناظر من هنا رائعة جداً، وهي تشحذ خيال الرسام ».

ابتسم بهدوء وقال :

« لا شك في ذلك. ربما أقوم باصلاح الكوخ في الجزيرة، ثم أؤجرها كمكان لقضاء شهر العسل ».

« يا لها من فكرة رومنطيقية ».

ضمت السيدة ماكاي يديها الى صدرها بفرح طفولي، في حين رمقتها اليسون بنظرة حانقة باردة. أما هو فقد نظر اليها بسخرية واضحة. لم يعد يهمها شيء، فلن يحدث بعد الآن أسوأ مما حدث لغاية اللحظة.

قالت الأم بعد قليل :

« ستأخذك اليسون الى الجزيرة بعد الظهر ».

ردت اليسون على الفور واضعة كل فظاظتها في كلماتها :

« أظنك تعرف طريقك الى هناك تماماً يا سيد ماكين ؟ وأظن انك ستدبر أمورك بشكل أفضل اذا ما كنت لوحدك ».

أجابها بهدوء قاتل :

« أفضل ان تأخذيني بنفسك. فالقارب هو قاربك وأنا أخشى أن أسيء استعماله ».

نقلت الأم نظرها بين الاثنين وقد أحست الجو المشحون بينهما، فازداد ارتباكها بين اتخاذ القرار والتراجع عنه.

تنهدت اليسون بقلق :

« سآخذك بعد الظهر. أما الآن فاعتذر منكما لأن هناك أشغالاً عديدة تنتظرني ».

أنهت عبارتها الاخيرة ثم غادرت الغرفة فوراً، قاصدة المطبخ لافراغ كل شحناتها وانفعالاتها أمام جيسي... التي ستفهم مشاعرها، خاصة بالنسبة الى الجزيرة، بعكس امها التي بدت وكأنها تميل للعطف اكثر من ميلها الى

ابنتها.

في ظرف غير هذا، كانت رحلة القارب في الجدول الساكن ستكون متعة حقيقية في ذلك النهار الدافئ... لكنها ليست كذلك مع هذا الرجل. ركزت اليسون نظرها على المجذافين، محاولة تناسي عدوها الجالس قبالتها.

كان قد عاد بعد الظهر في ثياب غير تلك التي شاهدته بها صباحاً. ولو لم تكن اليسون تحمل له كل الكراهية والاشمئزاز لوافقت حسي على قولها بأنه ذو مظهر أنيق وجذاب. فقد كان طويل القامة عريض المنكبين وقوي البنية دون امتلاء. فكرت بأن العمل في البحر أعطاه هذا القوام الممشوق. لكن من أين حصل على ثروته؟

لم يكلما بعضهما منذ أن غادرا البيت، إذ لا شيء بينهما يقال. حدقت اليسون في الفرصة التي بدت من البعيد وكأنها لعبة أطفال. كم كانت مرتاحة البال قبل يومين؟ كان يوما متميزاً عندما جاءت السيارة الزرقاء إلى القرية، فقد حملت معها كل المتاعب والمشاكل.

أصبحا قريبين الآن، وبدت الجزيرة في متناول النظر. لم تكن الجزيرة كبيرة، مجرد ربع ميل مربع تقريباً. لكنها من الكبر بحيث تضم بعض الكهوف والعديد من الأشجار والزهور البرية، وكونها حقلاً وسط حدائق جميلة.

وصل القارب إلى شاطئ الجزيرة وتوقف في الخليج الصغير المخصص للرسو. قفز نيال برشاقة إلى الشاطئ، ثم سحب القارب وربطه في وتد خشبي متين. وقبل أن يمد يده لمساعدة اليسون، كانت هي قد قفزت إلى البر متجاهلة يده. التفت نيال حوله ثم قال بإعجاب ملحوظ:

«رائعة... ألا تعتقدين ذلك؟».

ردت باختصار جاف:

«أجل. أين تريد أن نبدأ؟».

نظر إليها بتمعن وقال:

«من الكوخ على ما أعتقد».

«كما تريد...».

سألها بنعومة:

«هل تستطيعين التسلق، أم أنك بحاجة إلى مساعدة؟».

نظرت إليه باستغراب دون أن تحاول إخفاء امتعاضها:

«ومنك أنت؟ لا شكراً... أستطيع تدبر أمري من دونك».

خيم الصمت للحظات، ثم قطعه نيال بصوت حاد ماكر:

«دعيني أوضح لك الأمور. إذا كنت تعتقدين أنك بتصرفاتك الطفولية السخيفة قد تجبريني على التخلي عن شراء البيت، فأنت مخطئة. تصرفاتك تزيد من تصميمي على الحصول عليه».

واجهته بتحد قائلة:

«هل تريده فعلاً؟ أم أنك صممت على ذلك منذ سنوات بعيدة؟ لقد اخترت طريقة قاسية للانتقام مني... لا تعتقد أني نسيت... أبداً».

نظر إليها مذهولاً وقال:

«الانتقام؟ ماذا تقولين أيتها الفتاة؟».

«لا تتظاهر بالبراءة... إن ذاكرتي قوية».

حدق فيها بإمعان قائلاً:

«يبدو أن ذاكرتك أقوى من ذاكرتي... ومن الأفضل أن تخبريني الآن».

روت اليسون كل تفاصيل الحادث الذي وقع قبل تسع سنوات بالقرب من الجدول... وعندما انتهت هز نيال رأسه قائلاً وابتسامة خفيفة تلوح على شفتيه:

«إذن هذه هي المسألة؟ هل تعتقدين أن كلاماً سخيفاً قلته في لحظة غضب يمكن أن يدفعني إلى تغيير حياتي، فقط كي أنتقم من فتاة ما؟ يا إلهي، إنك أكثر غباء مما تصورت».

وللحظات أحست اليسون بالصدق في كلماته. لكنها استدارت فوراً وبدأت تتسلق التلة التي يقوم عليها الكوخ في محاولة يائسة للهرب منه ومن أجوبته الجاهزة أبداً. ما زال نيال الشخص العنيد الواثق من نفسه، والشيء الوحيد الذي تغير هو مظهره الخارجي. إنه لم يعد ذلك الفتى المهتز الشخصية بل صار رجلاً يستطيع تحقيق كل ما يريد. وها هو قد كسب حتى الآن أمها... والكلب راسبي.

تساءلت في سرها: ترى من بعد ذلك؟ بالتأكيد ليست جدتي؟ قالت

السوت التساؤلات في ذهنها وهي تواصل سيرها نحو الكوخ. لن يكون الأمر محتملاً إذا ما كسب نيال جسي ووجدت نفسها وحيدة في مواجهته. صحيح ان جيغ هي صديقتها الحميمة وتعيش في مكان قريب، لكنها لن تفهم مشاعرها وظروف العداء التاريخي تجاه عائلة ماكيون... وحده شقيقها اليك يفهم الوضع، لكنه بعيد جداً... جداً، وهو عاجز عن فعل أي شيء، حتى لو اخبرته أن البيت سيذهب الى الأعداء... وانه سيتحول الى فندق.

وقبل أن تصل الى قمة الدرج الصخري الضيق، زلت قدمها قليلاً مما ادى الى انهيار بعض الصخور الصغيرة... لم تستطع ان تحذر نيال الذي كان يتبعها، وعندما التفتت اليه كانت الصخور قد أصابت يده واخذ الدم ينزف بغزارة.

حاولت ان تساعده على صعود المسافة القصيرة المتبقية، لكنه تجاهل يدها الممدودة نحوه واخرج منديلاً من جيب سترته وضغط به يده المجروحة. فقالت له:

« أنا آسفة... [illegible] »

[illegible]

[illegible] الأشجار الكثيفة. شعرت السوت [illegible] وشعور عارم يجتاحها، هو مزيج من الأسف لأن الحادث غير مقصود فعلاً، والغضب للهجة المشككة التي واجهها بها.

لحقت به بعد لحظات قائلة:

« لقد كان حادثاً. لم أكن اتوقع أن... »

قاطعها قائلاً:

« دعك من الموضوع. لقد جئت هذه المنطقة مرات عديدة بحيث صرت اعرف خطورة الصخور الساقطة، وأيضاً كيفية تجنبها. ومع ذلك أسرعت مثل طفلة صغيرة غير عابئة بالخطر المحتمل. »

لم تستطع أن تضبط نفسها الآن، فردت عليه بقوة:

« إذا كنت ذكياً كما تدعي، فلماذا لم تنتظرني حتى أصل ثم تصعد خلفي؟ »

« لأن طريقتك في الصعود كانت تشير الى أنك ستسقطين حتماً... ومن الأفضل أن التقطك في منتصف الطريق على أن لا التقطك ابداً. »

التمعت عيناها بشرارات الغضب، وهي تقول:

« كنت اعتقد انك ستسر اذا ما سقطت فعلاً. »

ردّ عليها بصوت ناعم بارد:

« صدقي اني اشتري البيت وليس أن اقتلك. »

أحست السوت في نبرة صوته شيئاً ما يحذرها من أن صبر هذا الرجل قد بدأ ينفد. سحبت نفساً عميقاً من دون أن تبعد عينيها عن وجهه الذي بدا جذاباً بالفعل بسبب الشحوب التي لم تدر ان كانت بفعل الألم أم بفعل الغضب.

سألته بهدوء:

« هل تريد أن تعود الى البيت على أن ترى الكوخ غداً؟ »

نظر الى يده المجروحة منتشياً وقال:

« لماذا؟ لقد أصبت في حياتي بأسوأ من ذلك... اعتقد انني سأعيش. »

[illegible] الكوخ [illegible] بعد لحظات، [illegible] المكان، وكأنه يقدره بعد القيام بالتصليحات اللازمة عليه. مرة اخرى تركها في الخارج، ودخل يتفحص غرف الكوخ.

بدأت السوت تشعر انها تخوض معركة خاسرة ضد رجل لا يأبه لشيء. وتذكرت عندما عبر الأسلاك الشائكة لماذا لا تترك الأمور على سجيتها؟ خاصة أن عملية البيع تبدو واقعاً لا محالة. ستكون أمها غبية اذا رفضت العرض، فهم بحاجة ماسة الى المال... واقامة فندق في البيت أفضل من رؤيته يتداعى تدريجياً كما هي الحال الآن. لعلها الفرصة المناسبة لهذه المزرعة، وربما يغادر المكان بعد ان يحوله الى فندق ويسلمه الى اداريين مختصين. انه تاجر، والتجار قلما يستقرون في مكان واحد...

ايقظها صوته من افكارها الشاردة:

« سأقوم بجولة في الجزيرة، هل أنت قادمة؟ »

هزت رأسها بالإيجاب. انه يصر على وجودها. ولم لا؟ فإذا كانت هي هنا فلماذا لا تنقل ايضاً ما سوف يخسرونه. عبرا سوياً السطح الصخري والسرو

الكثيفة باتجاه الطرف الآخر من الجزيرة. النزول من الجهة الملتوية أسهل، لكنها منذ الصباح غير قادرة على التفكير المنطقي. راقبت اليسون وهو يقود الطريق أمامها دون أن يلتفت الى الخلف أو يعرض عليها المساعدة. كان ظهره منتصباً، بدا رجلاً قوياً. ولم تملك اليسون إلا أن تقارنه بالشاب الأرعن الذي قابلته قبل سنوات. صحيح انها تكرهه، لكنها لا تستطيع أن تنكر انه خلف هذه الكراهية تكمن بعض ملامح الاعجاب بروحه الحرة المغامرة وفي خضم افكارها، أكدت اليسون لنفسها أن الفندق الذي سيفتتحه نيال سيكون ناجحاً، فهذا الرجل لا يقبل انصاف الحلول أبداً.

وصل الى الشاطىء السحري والتفت اليها قائلاً:

« من هنا »

تابع السير بالاتجاه الغربي واليسون تتبعه دون أي اعتراض. كانت المناظر من هذه الناحية أجمل على الاطلاق. وعندما توقفت قليلاً للتمتع بالمناظر الخلابة استدار نيال ناحيتها بنفاد صبر... فاضطرت الى الاسراع خلفه. بدأت تحس بالتعب الممزوج بالحزن العميق. هذا الرجل يريد الجزيرة والبيت. أحست وكأنه يحاول أن ينتزع منها كل شيء... وتصورت أن الامان الذي احست به طوال حياتها ينهار ككومة من الرمال عصفت بها الامواج والرياح. وخلال أيام لن يبقى لهم إلا الكوخ الذي كان في الماضي مسكناً للبستاني وعائلته... وفيها غرفة الرسم... ترى ما الذي دفعه الى تقديم هذا العرض الخاص؟

وعند الصخور الشاهقة في الجانب الغربي، وقف نيال مسرحاً نظره نحو الشواطىء القريبة. ولم تستطع اليسون إلا أن تسأل:

« لماذا قررت أن تترك غرفة الرسم لأمي؟ »

استدار ببطء شديد، ونظر اليها باستغراب وتهكم:

« ألا تحاولين أن تكوني مهذبة في تحقيقاتك؟ »

احست اليسون بحمرة الخجل تضرج خديها، لكنها تمالكت نفسها قائلة:

« لا أظنك تحمل التهذيب... ذلك انني لم الحظ وجود هذه الصفة فيك حتى الآن »

« هذا صحيح »

انتهى بهذه العبارة، ثم استدار مطولاً نحو الشواطىء البعيدة. ودون أن يلتفت اليها تساءل بعد لحظات:

« وهل من الضروري أن يكون عندي سبب لذلك؟ »

أجابته بنبرة عادية:

« أعتقد أن هناك سبباً، لكنني أجهل كنهه »

« حسناً، الأمر بسيط للغاية. كانت أمك في الماضي مهندسة ديكور، وكنا أردنا أن تساعدنا في ديكورات الفندق »

أطلقت اليسون ضحكة عالية قائلة:

« ويلك، هل تعتقد بأنها سوف تعمل؟ لا شك أنك مجنون حين تفكر هكذا »

أجابها بنعومة:

« لماذا تعتقدين ذلك؟ »

« لأنها تشعر مثلي. فهي لن تتعامل معك على الاطلاق بعد اتمام عملية البيع. أتظن أنك رشوتها بغرفة الرسم؟ عندما اخبرها بالحقيقة فسوف ترميها في وجهك »

ابتسم بسخرية:

« على العكس تماماً. أنت مخطئة في توقعاتك. لقد سألتها ووافقت حتى قبل أن أعرض عليها غرفة الرسم... أمك يا آنسة ماكاي سوف تكون موظفة عندي »

٣ - هل أنت متزوج؟

ولأول مرة منذ سنوات تمضي اليسون ليلة في البكاء والنحيب. فقد كان النوم كابوساً مزعجاً.

ان نيال الأسود، رغم كل محاولاته للانكار، كان يشكل تهديداً رهيباً ضد أعداء عائلة القداسي، في حين تجد اليسون نفسها تتخبط في شبكة عنكبوت جهنمية تزداد تعقيداً كلما حاولت التملص منها.

فبعد الكلمات القاسية التي رماها بها نيال، تركته وحيداً وعادت الى القارب لانتظاره هناك. فهي لم تعد راغبة بالتحدث اليه، أو حتى النظر في وجهه.

وما ان وصلا الى البيت حتى أسرعت الى غرفتها تاركة له مهمة ربط القارب في مرساه. لم تقابل أمها، لأنها خشيت أن تقول لها كلمات قاسية قد تندم عليها فيما بعد. بل صعدت الى غرفتها مدعية بأنها مصابة بصداع حاد وتريد بعض الراحة... ولقد شاهدت في وجه جسي عندما التقتها قرب المطبخ من العطف ما كاد أن يفجر في نفسها مشاعر الحزن والمرارة، لكنها تمالكت وهربت الى غرفتها.

في اليوم التالي، وكان يوم الأحد، أفاقت اليسون باكراً وأعدت نفسها لرحلة طويلة. فهي تريد خلوة تستطيع فيها أن تفكر بهدوء... ولكنها عندما عادت مساء، كانت منهكة القوى دون أن تصل الى حل ما لمشكلتها المزعجة. وقد أخبرها جسي قبل انطلاقها للنوم أن أمها أمضت اليوم كله تعمل في غرفة الرسم.

تناولت اليسون افطارها الصباحي وحيدة. فعلى ما يبدو، جاء دور أمها

للاصابة بالصداع الحاد. لم تسأل اليسون عن الوقت الذي أمضاه نيال في البيت مساء السبت، وعما إذا كان قد طرح مشروعات جديدة. فهي لا تريد أن تعرف شيئاً يتعلق به.

وجدت صعوبة بالغة في عدم الالتفات الى منزل عائلة ماكين عندما مرت في طريقها الى المدينة. أحست وكأن مغنطيساً هائلاً يجذب نظرها الى ذلك الكوخ الصغير. كانت السيارة في الخارج، وهذا يعني أن نيال ما زال هناك. تساءلت اليسون عما اذا كان نيال قد أخبر والده، بكل التفاصيل، وعندما حاولت تصور مشاعر الأب، شعرت بغصة خانقة في حلقها. فقد كان الأب يحقد على عائلة ماكاي اكثر من ابنه. ولا شك أن الانتقام يعطيه احساساً بالراحة والتشفي. واصلت طريقها مصممة على اخفاء مشاعرها أمام تلامذتها، اذ يجب ألا يشعروا بأي تغير خاصة أنهم أطفال اذكياء يستطيعون فهم الأمور وتفسيرها... ومن ثم نقلها الى كل القرية في غضون ساعات قليلة.

استطاعت اليسون أن تنسى كل شيء وتركز ذهنها على عملها. بل وتمكنت من الركض مع الأطفال على طول الطريق القروي، بحيث أنها عندما وصلت الى بيتها متعبة ومتقطعة الأنفاس، كانت متاعبها قد زالت تقريباً.

لكن المتاعب عادت فوراً عندما لمحت سيارة نيال متوقفة أمام منزلها. وما كانت تقترب حتى رأت نيال يخرج من السيارة ويفتح الباب المجاور لوالدتها التي كانت تجلس الى جانبه.

قالت الأم عندما لمحت ابنتها:

«يا الهي، هل انتهى النهار بهذه السرعة؟»

ثم التفتت الى نيال وقالت:

«هل تدخل لتناول بعض القهوة؟»

ردّ نيال وهو يراقب اليسون:

«لا، شكراً يا سيدة ماكاي. يجب أن أذهب الى البيت لانهاء بعض الأمور. فأنا مسافر الى المدينة ولن أعود قبل يوم الخميس. هل عندك مانع في أن أزوركم عندما أعود؟»

«لا أبداً. وداعاً يا سيد ماكين».

استدارت أليسون وأسرعت إلى البيت. تبعتها أمها بهدوء وأغلقت الباب خلفها في حين سمعتا صوت السيارة وهي تبتعد.

وقبل أن تفتح أليسون فمها فاجأتها أمها قائلة:

« لماذا أنت فظة معه إلى هذا الحد؟ »

حدقت أليسون بأمها مندهشة، وبادلتها الأم نظرة مستغربة مستنكرة.

فقالت أليسون:

« فظة؟ أنا لا أستطيع حتى أن أنظر إليه، فكيف أتكلم معه؟ إنه ينتزع بيتنا ومنزلنا... وحتى أنت يا أمي، كيف تقبلين التعامل معه؟ قولي لي بربك، كيف؟ »

هزت الأم رأسها وأجابت بهدوء حازم:

« لقد أخبرني أنه أشار إلى الموضوع أمامك. كنت أفضل أن أحدثك بالأمر شخصياً... على كل، أنا آسفة يا حبيبتي، لكن كيف يمكنني أن أرفض عرضاً مادياً مغرياً؟ »

همهمت أليسون بحزن:

« لكننا لسنا معدمين... وهناك المال الذي سيدفعه ثمناً للبيت. »

ردت الأم بصوت حاد وقد بدا عليها الغضب:

« ألا ترين الأمور على حقيقتها؟ إني أحب هذا المكان مثلما تحبينه أنت. لو أستطيع أن أعيده إلى الحياة الرائعة بواسطة رسومي ولوحاتي... فلن أتردد. إنه يملك المال اللازم، ومن الغباء أن أترك للآخرين أن يقرروا الألوان المناسبة للغرف والقاعات والردهات بينما أستطيع أنا أن أتعامل معها بأحاسيس مختلفة... ألا ترين هذا الجانب من الأمور؟ »

هزت رأسها بلا تردد وأحست بالارتياح لأنها لم تثر الموضوع مع أمها من قبل. ولكن الذي استغربته هو كون خطوات نيال مدروسة ومتقنة وتثير الإعجاب.

قالت بحنان:

« أنا متأسفة يا أمي. المشكلة أني أحس بأنه يسرق كل شيء مني. »

نظرت السيدة ماكلي إلى ابنتها بعينين تشعان حناناً وقالت:

« يجب أن لا تفكري بهذه الطريقة يا حبيبتي. فهو ليس سيئاً كما تتصورين، بل هناك أشياء لطيفة فعلاً في شخصيته لا أستطيع تفسيرها أو

وصفها. »

ابتسمت قليلاً ثم تابعت قائلة:

« يجب أن لا أدعه يسمع هذا الإطراء. وبالمناسبة، لقد ذهبنا إلى المحامي هذا الصباح. »

سألت أليسون وقلبها يعتصر ألماً:

« أوقعتما ذلك؟ ... إذن، أصبح الأمر مؤكداً؟ »

« تقريباً. بالطبع ما زالت هناك الإجراءات القانونية اللازمة قبل إبرام العقد الذي سيكون بعد أسبوعين أو ثلاثة تقريباً... بعد ذلك سيصبح البيت ملكاً له. »

قالت أليسون باستسلام:

« ... وعندها يجب أن نغادره؟ »

أجابتها الأم وهي تجرها من ذراعها:

« نعم، في البداية سيكون الأمر صعباً، لكننا سنعتاد بعد ذلك. هيا بنا إلى المطبخ. ترى ماذا أعدت جيسي من طعام؟ »

مر الأسبوع سريعاً. وعندما عادت أليسون يوم الخميس من المدرسة، وجدت رجلاً قصير القامة يحمل معدات هندسية للقياس ودفتراً صغيراً لتسجيل الملاحظات. هز الرجل رأسه محيياً وأكد لأليسون أنه سيحاول عدم إزعاج سكان البيت قدر الإمكان خلال عمله.

كانت أليسون مهتمة بمعرفة خطط نيال بالنسبة للبيت، لذلك سألت الرجل عما إذا كان بإمكانها مراقبته وهو يعمل. فأجابها مسروراً بدون أن يدرك بالفعل طبيعة نواياها. وسرعان ما اتضحت الصورة لأليسون، فنيال لا ينوي تغيير طابع البيت الخارجي بل سيكتفي بتقسيم غرف النوم الكبيرة، وهذا بدوره لن يؤدي إلى تغيير الخارج لأن لكل غرفة نافذتين أو أكثر. إحدى الغرف الصغيرة في الدور الأول ستتحول إلى حمام، وكذلك إحدى غرف العلية. والشيء الوحيد الذي سيتغير خارجياً هو سلالم النجاة التي ستمتد من الدور العلوي إلى الدور الأرضي، ولكن الرجل أكد لأليسون أن السلالم ستكون سرية وغير ظاهرة للعيان على الإطلاق.

رافقت أليسون الرجل إلى الباب الخارجي بعد أن أنهى جولته مؤكداً لها أن الحصول على ترخيص بإجراء التعديلات لن يكون صعباً. وبدت بقلب

مثل وهي تدرك أن أيام الهدوء قد شارفت على الانتهاء، فغداً تبدأ الأيدي العاملة مهمة التغيير والتبديل... ولن يعود البيت كما كان في الماضي، أبداً... أبداً.

توجهت إلى غرفة الرسم حيث أمها وقرعت الباب الخلفي قبل أن تدخل.

قالت أمها دون أن ترفع عينيها عن اللوحة التي بين يديها:

« أدخل يا حبيبتي، هل رحل الرجل؟ »

ردّت اليسون بالإيجاب، فابتسمت الأم قائلة:

« حسناً، لم أكن أحتمل وجوده. هل... هل سيغير كثيراً في البيت »

روت اليسون لأمها كل ما سجلته ذاكرتها من تفاصيل عن خطط التغيير في الغرف الثلاث، وعندما انتهت، هزّت الأم رأسها وتنهدت بارتياح قائلة:

« الحمدلله. إنه لن يغير فيه كثيراً »

« هل كانت لديك شكوك في هذا المجال؟ »

« لا، لكن لا أحد يدري في مثل هذه الأمور »

قالت اليسون بهدوء:

« لم يتأخر الوقت بعد على تغيير الرأي »

نظرت اليها أمها قائلة:

« أنت تكرهينه كثيراً، أليس كذلك؟ »

« أجل، أنا أكرهه »

ركزت السيدة ماكاي نظرها في وجه اليسون وهي تقول:

« لم أرك في حياتي على هذا الشكل. كنت أعتقد أنك حساسة الى درجة تمنع عنك تأثير النزاعات الداخلية، لكنني أرى العكس. فلماذا تكرهينه؟ »

هزّت اليسون رأسها بتوتر وانسحب. ما تود أن تقوله لا يمكن أن تعبر عنه الكلمات، فهي لم تعد قادرة على كشف مشاعرها وعواطفها الدفينة. لا تستطيع أن تعبر حتى لأمها القلقة القلب عن الاضطراب الذي يعتريها كلما كان نيال قريباً منها. لذلك اكتفت بالقول:

« لعل الكراهية في دمي يا أمي. تماماً كما كانت في دم أبي، كما تذكرين. الفرق أنه كان قادراً على القتال... أما أنا فلا »

وحاولت أن تضفي على الجو مسحة مرح، فأضافت تقول:

« تصوري أنني أتعارك مع نيال ماكين الشرس »

لكن أمها لم تضحك، بل نظرت الى اللوحة أمامها وقالت بهدوء:

« أعتقد أنه رجل قاس إلا ما أمي، أيه، فلا تحاولي الاحتكاك به كثيراً »

ردّت اليسون بسرعة وعيناها تلمعان غضباً:

« هل توجهين اليّ تحذيراً؟ »

« أنني أوجه نصيحة لك يا اليسون. فأنا لا أريد أن أراك مجروحة الكرامة. أمثاله من الرجال يمكن أن يكونوا قساة الى حد كبير. لا تنسي أنه أمضى طفولة قاسية وزار الكثير من بلدان العالم وجمع ثروة لا بأس بها... وهذا يخلق مزيجاً من المشاعر في الرجل. لقد أحسست قوته الشخصية عندما قابلته أمس. صحيح أنه قادر على إخفائها، لكنها موجودة باستمرار... مشاعر فولاذية تحت مظهر حضاري. إنها موجودة في عينيه وفي وجهه، ذلك الوجه المميز لشاب في مثل عمره. إنني أتمنى أن أرسمه يوماً ما »

سمعت اليسون قرع جرس الباب الأمامي فانتهزت الفرصة لتنهي الحديث قائلة:

« إنه هو. سوف أذهب لأفتح الباب »

استدارت وخرجت مسرعة قبل أن تتمكن الأم من رؤية تأثير كلماتها التي أزعجت اليسون فعلاً وأكدت لها صدق ما لاحظته عليه من قبل. ولكن إذا اعتقدت الأم أن باستطاعتها الضغط على ابنتها بهذه الوسيلة، فإنها تكون أدرى بحقيقة نيال ماكين أكثر من معرفتها بشخصية اليسون.

عندما وصلت اليسون الى الباب، كانت جيني قد سبقتها اليه وأدخلت نيال قائلة له:

« سوف أخطر السيدة ماكاي بحضورك »

لكنها توقفت عندما رأت اليسون. ابتسمت اليسون بحرارة وقالت:

« لا بأس يا جيني »

ولكن هذه البسمة ذابت عندما التفتت الى نيال قائلة:

« سوف أقودك الى أمي يا سيد ماكين، فهلاّ تبعتني؟ »

« شكراً لك »

انحنى قليلاً بلطف قبل أن يلحق اليسون التي استدارت عائدة من حيث

أتت. سارت منتصبة القامة وهي تحس بنظراته القاسية تلاحقها. واستغربت اليسون كيف أن وجوده يشعرها دائماً بالانزعاج وكأنها تريد أن تهرب منه.

قرعت على الباب وفتحت قائلة:

«تفضل يا سيد ماكين».

نظر مباشرة في عينيها، فاضطرت إلى إبعاد بصرها أمام نظراته الحديدية الباردة. لكنه لم يقل أكثر من كلمة شكر، ثم دخل الغرفة. أغلقت اليسون الباب خلفه بيد مرتجفة وسمعته يقول:

«لقد وصلت الآن من شيفيلد. هل جاء أحد؟»

وانخفض الصوت تماماً عندما تركت المكان هاربة من صوته ووجوده..

الآن فقط أدركت اليسون لماذا تحبه الأم جداً. فصوته - مع الأم طبعاً - كان دافئاً وصادقاً كصوت أي رجل لطيف في حضرة سيدة محترمة. وفكرت اليسون وهي تغادر البيت إلى الحديقة أنه عندما يمتلك المكان وتصبح أمها مجرد موظفة عنده، فلا شك أن اللطف سيزول وتظهر طبيعته الحقيقية... وعندها فقط ستكتشف الأم كل الواقع، لكن الأوان يكون قد فات آنذاك.

عند المساء، أبلغت السيدة ماكاي ابنتها أن نيك سيأتي في نهاية الأسبوع لإجراء بعض القياسات والحسابات المتعلقة بمواد البناء اللازمة للتعديلات المقترحة. نظرت اليسون إلى أمها بغضب قائلة:

«وبالطبع، وافقت على طلبه».

ردت الأم بحزن:

«طبعاً، أنا آسفة يا حبيبتي لكن الأمور يجب أن تسير. وعليك أن تظلي خارج المسألة كلها. لماذا لا تتصلين بصديقتك ميغ التي لم تشاهديها منذ مدة وتسأليها ما إذا كانت مستعدة لاستقبالك في عطلة نهاية الأسبوع؟»

«إنها فكرة. سأتصل بها فوراً. سأكون مسرورة لرؤيتها مرة أخرى».

لكنها أضافت قائلة لنفسها: وسأبتعد عن هذا الشخص الكريه والتخفف من الأعباء التي أحملها من جراء وجوده. طلبت اليسون رقم هاتف صديقتها وهي تتمنى أن لا تكون ميغ قد قررت الذهاب إلى مكان بعيد مع زوجها بيل والأولاد. وعندما سمعت ميغ صوت صديقتها هتفت

بسرور:

«أهلاً وسهلاً يا اليسون، كم أنا مشتاقة لرؤيتك. ستأتين الجمعة مساء بسيارتك؟ أي لتتعرفي على آخر من الجمع».

فرحت اليسون كثيراً لسماع صوت صديقتها وأدركت أنها ستكون قادرة على الإفضاء بمكنونات صدرها إلى تلك الصديقة القديمة... وهذا ما خفف عنها بعض العناء.

راقبت ميغ صديقتها وهما تتناولان القهوة وقالت:

«يبدو أنه كريه جداً، لكنه حسب كلامك قوي جداً. أنا متأكدة أنك تبالغين في الوصف».

ضحكت اليسون بسعادة افتقدتها طيلة الأسبوع الماضي. كانت الساعة قد جاوزت منتصف ليلة الجمعة، والصديقتان جالستان تتسامران حول النار، وفي الخارج مطر غزير لا ينقطع. في إحدى الغرف رقد طفلا ميغ التوأمان البالغ عمرهما ثلاث سنوات. أما الزوج فقد ذهب إلى غرفته بعد أن حذرهما قائلاً:

«سأترككما مع ثرثرتكما التي لا تنتهي. لكن أرجوكما أن لا توقظاني بضحكاتكما العالية... وإلا هجمت عليكما وعاقبتكما».

أدى هذا التحذير الضاحك إلى إيجاد جو من المرح في جلسة الصديقتين الحميمتين. كانت ميغ الصديق المريح الذي تحتاجه اليسون، فقد استمعت إلى حكاية صديقتها باهتمام منذ أن جاء نيك إلى القرية وحتى التحطيم البطيء الذي أطلقته الأم بعد ظهر ذلك اليوم.

راقبت اليسون صديقتها ميغ التي قامت لتجلب فنجاني القهوة مرة أخرى، فأحست بارتياح شامل ما كانت تتوقعه بمثل هذه السرعة. كانتا في العمر نفسه تقريباً وتخرجتا سوياً من معهد التدريب، وافترقتا: ميغ إلى دينجواك واليسون إلى شايبيج.

كان قد مضى على التحاق ميغ بسلك التعليم سنة واحدة فقط عندما استطاع مدرس الرياضة الوسيم بيل هوارد أن يغزو قلبها وينقلها إلى عش الزواج الذهبي. ومع أن الزوجين قررا مواصلة العمل عدة سنوات قبل الإنجاب، إلا أن إرادة الله حققت العكس. فبعد سنة فقط، كانت اليسون تهنئ صديقتها بميلاد طفليها التوأمين. وطيلة هذه المدة ظلتا على

اتصال مستمر عبر الهاتف أو بواسطة الرسائل. وكثيراً ما ذهبت ميغ مع زوجها وطفليها لتمضية عطلتهم في أراضي بيت اليسون. وكانوا يرفضون بحزم استعمال غرف النوم في البيت، ويكتفون بتناول الفطور يوم الأحد مع جميع أفراد العائلة.

بعد أن ملأت ميغ فنجاني القهوة، عادت إلى مقعدها متسائلة :

«نيال لم يتطلك في السابق من حادث جرى لك ؟».

انفجرت اليسون ضاحكة :

«إنه هو. والسبب نزاع عائلي قديم... وهكذا ترين».

«لكنني بصراحة لا أجد الرابط بين الشيئين. وأنا أتذكر أننا كنا نتحدث عن الموضوع في الكلية بنوع من الرومنطيقية...».

احمر خداها عندما واجهتها اليسون بنظرة استغراب لكنها تابعت تقول :

«ما أقوله صحيح. لا شك كنا عذارى لاهيين، لكنه أنقذك من ذئب بشري، ثم عاملك كصديق أو ما حدث لك هو ما كنا نحب أن نقرأ عنه في سن المراهقة، ألا تتذكرين يا اليسون ؟».

.. وتذكرت اليسون. استغرقت في الصمت للحظات وهي تسترجع المتعة التي عاشتها في الماضي. وبلا شك، كان هناك جو من الرومنطيقية حول القصة كلها في ذلك الوقت... أما الآن، فمجرد ذكر نيال يثير في أوصالها قشعريرة باردة.

«يجب أن تريه الآن يا ميغ حتى تدركي ما قصدت. فهو مختلف تماماً. هناك شيء في شخصيته يثير الفزع والخوف».

مدت ميغ النظر في وجه اليسون قائلة :

«حسناً. لا أرى إلا واحداً لذلك. علي أن أقنع بيل بتحمل عناء التخييم والذهاب لقضاء عدة أيام عندكم... وعندها سأرى كل شيء على الطبيعة».

حدقت اليسون في صديقتها ثم انفجرت ضاحكة :

«هل ستفعلين ؟ لا شك أنك قاطعة. آه يا ميغ، لماذا لا تسكنون بالقرب منا ؟».

ابتسمت ميغ :

«وربما تنجح في نقل مدينتنا إلى مكان قريب من قريتكم».

جاء يوم الاثنين ممطراً وبارداً. وقد انعكس الجو على التلامذة الذين بدوا في حالة متوترة. فتوما ستيوارت، التلميذ المشاغب، ضربت وبلي ماكلويد لسبب غير معروف، مما خلق حالة من الفوضى في الغرفة أخذت وقتاً طويلاً من اليسون كي تعود إلى طبيعتها. وعندما حل الغضب أخيراً، كانت الساعة قد قاربت الرابعة بعد الظهر. أطلقت اليسون سراح التلامذة وهي متأكدة أن الشجار سيندلع مجدداً لمجرد مغادرتهم باب المدرسة.

توجهت إلى النافذة لتراقبهم وهم يركضون على طول الطريق. وعند الباب، شاهدت رجلاً يخلي الدرب للصغار المسرعين... وسرعان ما لاحظت أنه نيال ماكين، وهو يتوجه صعوداً إلى المدرسة. نظر إلى الأعلى وشاهدها. كانت على وشك أن تبتعد عن النافذة لكنها توقفت. إنها موجودة في مكانها الطبيعي، لذلك قررت البقاء بغض النظر عن وصول الزائر غير المرغوب فيه. لعله يقصد أحد الزوار الوالدين خلف المدرسة ؟ استبعدت هذا الاحتمال لأن سكان المنزل أرملتان طاعنتان في السن تعيشان وحيدتين مع بعض القطط، ولا تختلطان بسكان القرية.

ابتعدت اليسون عن النافذة قليلاً عندما وجه نيال نظرة أخرى إلى غرفتها، ثم سارت باتجاه طاولتها لترتيبها تمهيداً للعودة إلى المنزل. وبعدها لملمت حاجياتها، وارتدت معطفها وسارت نحو الباب... الذي انفتح فجأة وظهر منه ماكين. قائلاً بهدوء :

«هل أستطيع الدخول ؟».

تراجعت قبل أن تقول :

«تفضل. ماذا تريد يا سيد ماكين ؟».

قال :

«أريد أن أتحدث إليك قليلاً».

اضطرت اليسون إلى توجيه نظرها نحو وجنة خده لأنها كانت عاجزة عن النظر مباشرة إلى عينيه، على الأقل حتى تزول الصدمة التي أحدثها دخوله. تنحنحت بحنق قبل أن تنظر إليه وتقول :

«أعتقد أنه من الأفضل لك أن تقول ما تريد لأمي. أنا متأسفة، لكنك تتعامل مباشرة معها».

هزّ رأسه ببطء وقال :

« لا . ما أريده لا يتعلق بالبيت . الموضوع على علاقة بالمدرسة » .

« لست أفهم » .

ظهرت علامات التعجب على وجه اليسون ، أما هو فقد تابع الحديث قائلاً :

« أؤكد لك أن الأمر ليس مزحة . جئت لأسألك عما إذا كان بإمكانك استقبال تلميذ آخر في صفك ؟ » .

حاولت جاهدة أن تخفي استغرابها فأردفت :

« طبعاً طبعاً . هناك سبعة تلامذة فقط . هل أفهم من كلامك أنك تريد تسجيل تلميذ في المدرسة ؟ » .

« أجل » .

توجهت اليسون إلى طاولتها وأخرجت دفتر التسجيل الرسمي ووضعته على إحدى الصفحات في حين كان نيال يراقبها بصمت . وطيلة هذا الوقت كانت غير مصدقة لما يحدث .

نظرت إليه متسائلة :

« ما هو اسم التلميذ وعمره ؟ » .

« اسمه أندريه لويس غارسيا وعمره ست سنوات » .

سجلت الاسم والعنوان ثم سألت :

« ما هو عنوانه ؟ » .

« عنوانه الحالي غير مهم . عندما يصل إلى القرية سيسكن معي أنا في منزل والدي في شيلينغ » .

كتبت اليسون العنوان كاملاً ، ثم قالت :

« أعتقد أنه ليس انكليزياً . هل يمكن أن أعرف جنسيته والمدة التي ينوي قضاءها هنا ؟ » .

« إنه برازيلي ، وهو . . . » .

توقف عن الكلام وقد علت وجهه ملامح قاسية وعندما لاحظ نظرات اليسون المتسائلة حوّل عينيه إلى نافذة الصف . ظلت اليسون صامتة للحظات خوفاً من تحطيم الصمت المتوتر الذي خيّم عليهما . لكنه تدارك الموقف وقال :

« سوف يعيش هنا إلى الأبد . هنا وطنه الجديد » .

شكرته وأخذت تردد ما تكتبه :

ثم أغلقت الدفتر الكبير قائلة :

« عليّ أن أبلغ السلطات الرسمية . فمتى تريده أن يباشر الدراسة ؟ » .

« سيصل يوم الأربعاء المقبل . هل ترين أن الاثنين الذي يليه سيكون مناسباً ؟ » .

« حسناً ، يوم الاثنين . لكنني أريد أن أعلمك بأن المدرسة قد تغلق أبوابها عند مطلع العام الجديد . ففي ذلك الوقت لن يكون هناك غير تلميذين . . . بالأحرى ثلاثة . وهؤلاء سينقلون إلى مدرسة أخرى بعيدة » .

هز رأسه قائلاً :

« سأهتم بهذه المشكلة في وقتها . أما الآن فانه سيتابع دروسه هنا أليس كذلك ؟ » .

« نعم » .

نقل نيال نظره إلى الغرفة متأملاً المقاعد والطاولات والجدران المزينة برسوم الأطفال . لا شك أن المدرسة لم تتغير كثيراً عما كانت عليه في أيامه . المقاعد ما زالت هي نفسها ، وعليها خربشات وكتابات أجيال متعاقبة من الأطفال .

لاحظت اليسون أن عينيه فقدتا بعض القسوة التي كانت فيهما قبل قليل .

سألها وهو يتوجه إلى الباب :

« هل هذا كل شيء ؟ » .

« أجل . لكنّ هناك شيئاً آخر نسيت أن أسجله . من هو ولي أمر أندريه ؟ » .

وبينما كانت اليسون منهمكة بإعادة فتح السجل الرسمي جاءها الجواب الحاسم :

« أنا ولي أمره » .

أخفت اليسون دهشتها وهي تسجل « ولي الأمر / السيد نيال ماكين » . . . وقبل أن تنتهي فاجأها مرة أخرى بقوله :

« مهلاً كان يجب أن أضيف اسم ماكين بعد اسم غارسيا . . . فأندريه

هو ابني ».

وبفعل الصدمة العنيفة، لم تجد اليسون غير العبارة التقليدية :

« لم أكن أعرف أنك متزوج »

تقلصت عضلات وجهه وهو ينظر إليها بحدة قائلاً :

« ولماذا يجب أن تعرفي؟ »

ثم استدار مغادراً قاعة الصف.

٤ - لعبة غامضة

وجدت اليسون نفسها تنتظر على أحرّ من الجمر مجيء يوم الأربعاء حتى تتعرّف إلى ابن نيال ماكيون. ولا شك أنه لم يشر إلى هذه الواقعة أمام أي إنسان غيرها، والدليل على ذلك الأحاديث في صالونات القرية عن عملية بيع البيت بدون الإشارة لا من قريب ولا من بعيد إلى هذا الابن، أو إلى زوجته. لكن المسألة أصبحت الآن بالنسبة لأليسون، فكونه أباً يضع لعائلة كبيرة. وأكثر فأكثر وجدت نفسها مهتمة بمعرفة هوية زوجته وطبيعتها. توقعت أن تكون شابة برازيلية على قدر كبير من الجمال، فهذا وحده يرضي غرور نيال... ولا بدّ أن تكون غنية أيضاً مما يفسر الثروة التي هبطت عليه فجأة. ولكن، هل يعقل أن تقبل زوجة غنية وجميلة مثلها بالاستقرار في منطقة منعزلة مثل شيلبريج؟

غادرت اليسون المدرسة بعد ظهر الأربعاء مستعملة سيارتها في ذلك النهار الممطر. كان نيال قد غادر القرية مساء أمس وحتى الآن لم يعد. ربما وصلت زوجته وابنه إلى إينفرنيس قادمين من لندن، فذهب إلى استقبالهما وقضاء ليلة معهما هناك قبل أن يحضرهما إلى القرية... أو ربما أراد إعدادهما للعيش في القرية ومواجهة الأوضاع الجديدة... أو ربما...

هزّت اليسون رأسها في محاولة لطرد هذه الأفكار وأسرعت عائدة إلى البيت. لماذا هذه التساؤلات والافتراضات حول رجل قلب حياتها رأساً على عقب؟ أدركت أن عليها تناسيه، أو على الأقل إهماله؟ إذا ما أرادت أن تعيش حياة طبيعية بعد الآن، خاصة أنه سيصبح جارها لسنوات وسنوات. وفكرت باستغراب، لعل مسألة زواجه ستساعد على إقامة نوع

من التحرش معه. »

سمعت صوت محرك سيارة خلفها، وعندما نظرت في المرآة الخلفية شاهدت سيارة نيل تتجاوزها مسرعة. لمحتها للحظات، وبدا لها أن أحداً لا يجلس إلى جوار نيل.

وما أن أطل يوم الخميس حتى كانت القرية تضج بالآراء. الروايات التي أطلقت كانت متنوعة ومختلفة، ولكنها تدور حول ذلك الصبي الصغير الذي لم تره أليسون في سيارة أبيه أمس. كان صغيراً وشاحباً، وفي قاعة الصف، وقف إلى جوار النافذة ممسكاً بالستائر وكأنه يخشى من شيء مجهول.

عندما دخلت أليسون مكتب البريد بعد انتهاء الدراسة في ذلك اليوم، خيّم صمت ثقيل على الموجودين. . . وقطعت السيدة فيليبوت الصمت كعادتها قائلة:

« هل صحيح يا أليسون، أن ماكين متزوج من ابنة تاجر قهوة برازيلي ثري جداً؟ »

نظرت أليسون إلى السيدة فيليبوت باستغراب شديد، وهي تدرك أن عليها عدم الدخول في عالم الشائعات هذه، خاصة أنها مدرّسة الصبي. قالت:

« لا أعرف. ولكني لا أعتقد ذلك. فحتى الآن لم أر زوجته. »

وهنا تدخلت الأختان ديزي ودوريس اللتان تعيشان قرب كوخ عائلة ماكين، وهما تقضيان وقتهما في مراقبة الناس والاستماع إلى أخبارهم. قالت ديزي:

« ونحن لا نعرف أيضاً. لكنه وصل مع الحقائب أمس. كانت الحقائب. . . »

قاطعتها أختها دوريس:

« جميلة جداً، وجديدة. وهي تحمل بطاقات طيران. »

وجاء دور ديزي مجدداً:

« كتب عليها ريو - لندن. »

كان من الصعب على أليسون أن تناقشهما، فهما تقاطعان بعضهما دائماً. . . لكن المعنى في كلامهما واضح تماماً. كان الموجودون

في مكتب البريد ينظرون إلى أليسون وكأنهم يتوقعون منها أن تعرف كل شيء. اتضح السبب عندما قالت دوريس فجأة:

« ألم يأت إلى المدرسة لزيارتك يوم الاثنين الماضي. »

قاطعتها ديزي:

« لا شك أنه يريد تسجيل الصغير. »

وأخذت دوريس دفة الحديث مجدداً:

« ومن الطبيعي أن يذكر لك اسمه و. . . »

فجأة صمتت دوريس ليس لأن أختها قاطعتها، بل لأن الباب خلف أليسون انفتح بهدوء وظهر منه نيل ماكين بنفسه. غادرت دوريس وديزي المكان وهما تحييان نيل الذي ردّ التحية بلطف، وتشاغلت المرأة الثالثة بمطالعة بعض المنشورات. . . أما أليسون فقد انصرفت إلى شراء الأغراض التي جاءت من أجلها أصلاً، بدون أن تنسى الرجل الذي يقف خلفها.

سمعت صرير القلم على بعض الأوراق التي عبأها نيل، ولاحظت أن السيدة فيليبوت عضّت على شفتها وهزت رأسها بهدوء وكأن شكوكها قد تحققت. تمنت أليسون لو تستطيع الهرب. وكم شعرت بالارتياح عندما تسلمت أغراضها واستدارت خارجة. . . وفي هذه اللحظة لمحته متكئاً على كتابة برقية.

في الخارج، أخذت أليسون نفساً عميقاً وهي تشعر بالارتياح لخروجها من الجو الموبوء المخيم في مكتب البريد. وبما أن الحياة روتينية في القرية، فإن السكان يجدون تسلية في تتبع أخبار الآخرين. . . وبالتحديد تلك التي تثير أكثر من علامة استفهام. ومع أن أليسون حاولت دائماً الابتعاد عن أجواء الثرثرة المتفشية، إلا أنها وجدت نفسها أكثر رغبة من الجميع في معرفة المزيد عن الطفل الغريب. . . وأيضاً معرفة الزوجة الغامضة التي لم تظهر على مسرح الأحداث بعد.

سمعت السيدة ماكلي تحكي حكايات كثيرة عن نيل ماكين. أنه مطلق، أنه أرمل، زوجته قادمة الأسبوع المقبل، أنها ممثلة سينما برازيلية. . . بل هي مطربة مشهورة، الطفل عاجز عن الكلام باللغة الإنكليزية. . . لا، أنه يتكلمها بطلاقة. كانت الروايات كثيرة ومتناقضة

وكلها نابعة من مخيلة أهل القرية الذين لا عمل لديهم إلا تمضية الوقت الطويل في الأحاديث والأخبار.

كانت جيني هي الأولى التي تقول كلمات لها معنى حول الموضوع:

« وماذا ستفعل الزوجة المسكينة عندما يغادر ابنها المدرسة بينما يعمل زوجها في الحقل هنا؟ عليها أن تأتي فوراً وإلا أصبح الطفل وحيداً ومريضاً. هل تتصور أن يرعى ماكلين المسكين هذا الولد؟ لا أعتقد ذلك، فكل همه الآن تمضية أيامه مع أصدقائه في النادي... »

تبادلت الأم وابنتها نظرات الموافقة. وبدأت أليسون تدرك الحقيقة كما صورتها كلمات جيني. لكن السؤال الذي ظل يلح على فكرها هو، إذا كانت الزوجة قادمة ولا ريب، فلماذا لم تأت مع الطفل في الوقت نفسه؟

تساءلت أليسون عما إذا كان نيال سيرسل الصبي وحده إلى المدرسة صباح الاثنين؟ وتمنت ألا يفعل تاركاً الصغير يواجه لأول مرة أمكنة جديدة وأوجهاً غريبة عليه. وعندما حلت الساعة التاسعة نظرت إلى الصغار وقالت:

« [illegible] جديداً [illegible] اليوم. [illegible] جميعاً [illegible] من أمريكا الجنوبية [illegible] وسعكم لجعله يشعر بالراحة والاستقرار. »

علت همهمة في القاعة، تجاوزها صوت لورنا القوي:

« لقد تعرفت إليه يا آنسة أليسون. إنه يقيم في الكوخ المجاور. وهو ولد خجول وضعيف، وسأعمل جاهدة كي أساعده. »

وقبل أن تنهي أليسون كلمة الشكر، تابعت لورنا تقول:

« إنه يمضي الليل في البكاء والنحيب منذ أن وصل إلى البيت. »

تركت هذه الكلمات تأثيراً غريباً على أليسون، ووقعت على قلبها مثل ضربات قاسية مؤلمة. تنهدت بعمق وقالت:

« لا شك أنه يحن إلى وطنه. لذلك يجب أن نبذل جهدنا كي نسليه ونرفه عنه. »

وفي أعماقها كانت تشعر بالكراهية تجاه أب قاس لا يبالي بمعاناة ابنه. كيف استطاع أن يحضر هذا الولد الصغير من وطنه إلى بلد غريب

عليه، للعيش مع رجلين... حيث لا وجود لحنان الأم تمسح عن عينيه دموع الغربة، بل سرير بارد في غرفة صغيرة ينام فيها وحيداً؟

وفجأة، سمعت أليسون ضجة في القاعة، فالتفتت لتجد الطفل الصغير يشد يد نيال. كان الطفل في الباب أشبه بقزم يقف في ظل أبيه الذي غطى الباب كله... ولأول مرة لاحظت أليسون على وجه نيال نظرة إنسانية هي غير نظرة الغرور والتكبر. كانت صورة الاثنين معبرة بحيث أدركت أنها زرعت في مخيلتها إلى الأبد.

سارت أليسون نحو الباب وشفتاها تتحركان بشكل آلي. وعندما وصلت إلى الصغير مدت له يدها قائلة:

« مرحباً يا أندريه. »

انتظرت عدة لحظات وهي تتمنى أن يستجيب ليدها الممدودة، وهكذا كان، ووجدت يده الصغيرة مستقرة في يدها بهدوء وحزم. نظرت إلى عينيه مباشرة فبدا لها أنهما مثل عيني والده... مع ملامح من الوحدة والاضطراب والعجز. كان شاحب اللون، شعره أسود مثل شعر نيال ولكن أكثر [illegible] وعلى [illegible] الشمس. [illegible] نظرة [illegible] يحاول [illegible] أن يقرأ شيئاً، ولكن دون نجاح.

نظرت أليسون إلى نيال الذي ابتسم بهدوء وكأنه يقرأ أفكارها ومشاعرها ثم قال:

« هل تريدين مني شيئاً يا آنسة ماكلين؟ »

« كلا يا سيد ماكلين. سيكون أندريه على ما يرام هنا. وسأهتم شخصياً بإيصاله إلى البيت عند الغداء. »

« شكراً لك. »

ثم التفت إلى ابنه مربتاً على رأسه بلطف:

« وداعاً يا أندريه. كن عاقلاً. »

واستدار مغادراً قاعة الصف قبل أن تستطيع أليسون الكلام.

أليسون تعرف أن اليوم الدراسي الأول مهم جداً في حياة الطفل، وأن أي شيء يحدث اليوم سيؤثر على مسيرته الدراسية إلى الأبد. ألقت ابتسامة عريضة على القاعة وهي تشعر بالارتياح لأن تلامذتها غير

القلب. صحيح أن الصبيان مشاغبون قليلاً، لكنهم يحبون بعضهم ولا يختلقون المشاكل. نظرت أليسون الى هيثر البالغة من العمر ثماني سنوات وقالت :

« هيثر، أندريه سيحظى بالقرب منك. وأنت يا فيونا، تعالي معي الى المخزن كي تحضر كل ما يحتاجه أندريه من أدوات وكتب ».

وقفت الفتاتان باحترام . ثم توجهت هيثر وأمسكت يد أندريه بحنان، في حين سارت فيونا نحو أليسون. شعرت أليسون بالارتياح لتجاوب الفتاتين، وأدركت أنها خطت خطوة بالاتجاه الصحيح.

مضى الصباح على ما يرام. وقد حاولت أليسون عدم التركيز على أندريه تاركة له مهمة الاندماج مع التلامذة الباقين حسب طريقته الخاصة. وسرعان ما اكتشفت أنه ذكي ومتفتح، ويتكلم الانكليزية بلكنة أجنبية مما يمكنه من التعبير عن نفسه مع الآخرين.

في وقت اللعب، ظلت أليسون في القاعة تراقب من بعيد كيف سيستطيع هذا القادم الجديد أن يجد لنفسه مكاناً بين الصبية الكبار . . . لكنه قرر أن يبتعد عن المشاكل وظل في صحبة هيثر وفيونا. ابتعدت أليسون عن النافذة مبتسمة، فابن نيال ماكين يسير على ما يرام.

وهكذا بدأت حياة أندريه في مدرسة شيلنغ. انها نقطة تحول في حياته . . . ولكنها لم تدر أنها ستكون نقطة تحول في حياتها أيضاً.

لم تر أليسون نيال ماكين لعدة أيام بعد ذلك الصباح، مع أن سيارته كانت دائماً أمام برج العائلة في أوقات الظهيرة وعند المساء. أما أندريه، فقد بدأ يستقر في حياته الجديدة، وراح يتعامل براحة مع الأولاد الذين أخذوا يعرفونه الى ملاعبهم وألعابهم المختلفة. كانت أليسون تدرك أن الطفل خجول للغاية. . . ولكنها عاجزة عن حمايته من القسوة غير المقصودة التي يطرح بها الأطفال أسئلتهم حول حياته السابقة.

ودعته بعد ظهر الجمعة بقلب مثقل وهي تتمنى أن يسمح له نيال باللعب مع الأولاد قرب الشاطىء، اذ يبدو عليه أنه بحاجة الى الهواء الطلق والطعام المغذي لتجاوز نحالته الواضحة.

وقد فهمت أليسون من الملاحظات المتناثرة التي أبداها الأطفال أنه يلازم البيت عندما يعود من المدرسة بعد الظهر حتى صباح اليوم التالي

دون أن يغادره ابداً.

روت أليسون هذه المعلومات الى جيني وهما تتناولان الشاي بعد ظهر ذلك اليوم. فرفعت مديرة البيت العجوز عينين حادتين الى أليسون وهي تقول :

« هل بدأت تميلين الى هذا الصغير؟ »

اضطرت أليسون للاعتراف بهذا الواقع مدركة أن شيئاً لا يفوت عيني جيني الفاحصتين :

« أجل . . . اني أهتم به كثيراً ».

قالت جيني :

« إذا أضفنا بعض الأخبار مشاعرك نحو نيال ماكين، فانني أستغرب موقفك من الابن! »

ردت أليسون :

« مشاعري نحو نيال ماكين لا علاقة لها بهذه المسألة. لو أنك رأيت الابن لعرفت حقيقة موقفي منه. إنه صبي مسكين، انتزع من وطنه الى بلد غريب . . . وهو لا يحتاج إلا الى امرأة تعطف عليه وتهتم به ».

عضت أليسون على شفتها نادمة على كلامها هذا، لكن جيني كانت أسرع في الرد :

« كم أنا آسفة لك! آه لو أنك ترين تعابير وجهك وأنت تتحدثين عنه. هناك شيء وحيد يمكنك أن تفعليه من أجل الصبي. عندما يأتي نيال مرة أخرى اعترضي طريقه واسأليه عن موعد حضور زوجته . . . وقولي له السبب أيضاً ».

رمت أليسون المرأة العجوز بنظرة حادة وقالت :

« لا أستطيع ذلك يا جيني. فأنا غير قادرة حتى على الحديث معه دون . . . مستحيل فهو سيهاجمني بشدة وفظاظة ».

« من أجل الطفل فقط ».

التقت عيون أليسون وجيني في نظرة عابرة، فهمت منها جيني الكثير. صحيح أن مديرة البيت العجوز طيبة القلب ومرحة، إلا أنها تتحول الى لبؤة شرسة اذا ما تطلبت الظروف ذلك. وفي هذه اللحظة أحست أليسون أن العجوز محقة في كلامها. فقالت مبتسمة :

« معك حق. سأكلمه عندما يأتي ».
ردّت جيسي بابتسامة مماثلة:
« حسناً، يمكنك أن تكلميه الليلة، فهو آتٍ هذا المساء ».
ضحكت اليسون بمحبة:
« آه أيتها العجوز الماكرة ».
تلفّتت جيسي حولها وكأنها تفتش عن الشخص الذي عنته اليسون بكلماتها الأخيرة، لكن اليسون تابعت تقول:
« لماذا هو آتٍ الليلة؟ »
ردّت جيسي:
« هناك بعض التفاصيل الصغيرة التي يجب البت فيها. فأدوات البناء ستصل الأسبوع المقبل، ثم يبدأ العمل فور توقيع عقد البيع ».
ردّت اليسون بهدوء:
« قبل هذا العمل يجب أن نغادر البيت ».
« أجل. لكن عملية ترميم الكوخ وإجراء الديكور اللازم له سيبدأ الأسبوع المقبل، وقبل أن ننتقل ».
صرخت اليسون متسائلة:
« ماذا؟ ومتى تقرر هذا الأمر؟ »
« لا أدري، اتفقا على الأمر فيما بينهما. أعتقد أن أمك تريد أن تفاجئك. لذلك أرجو ألا تقولي إني أخبرتك ».
« اطمئني يا جيسي، لن أخبرها ».
لكن اليسون أحست بأنها طعنت من الخلف لأن كل هذه القرارات تتخذ من دون علمها. وبدا لها أن أمها تقرر مع نيل ماكين، وأنهما قررا إبقاءها خارج الموضوع برمته. اليسون تدرك أن عواطفها تزين لها هذه الأفكار، لكنها لا يمكن أن تتجاهل التغير الذي طرأ على أمها مؤخراً. فهي تتكلم وتتصرف وكأنها عادت الى الحياة من جديد، وكل ذلك بسبب الديكور الذي ستجريه للبيت تحت إشراف نيل.
عندما وصل نيل ماكين ذلك المساء، كانت اليسون في الصالة مع أمها تشاهد التلفزيون. وما أن سمعت صوت الجرس حتى هبت واقفة وهي تقول:

« أنا سأفتح الباب. أريد أن أتحدث على انفراد أيضاً ».
بدأت الأم قائلة:
« اليسون ».
لم تدعها اليسون تكمل كلامها:
« لا يا أمي. الموضوع يتعلق بابنه ».
فتحت اليسون الباب لتراه واقفاً هناك عملاقاً صلباً. ترددت في الكلام لاعتقادها بأنه لن يقبل تدخل أحد، لكنها استعادت شجاعتها عندما تذكرت وجه أندريه النحيل والحزين، وقالت:
« قبل أن تتوجه الى حيث أمي، أود أن أحدثك قليلاً يا سيد ماكين ».
دخل الى القاعة الجانبية دون أن يحوّل عينيه عنها وقال:
« نعم، ماذا هناك؟ »
تمنت اليسون لو كانا في غرفة أصغر من القاعة، فالاتساع يجعلها تحس بالضعف أمامه. ومع ذلك لا مجال أمامها إلا المضي قدماً. قالت:
« المسألة تتعلق بابنك. قد تعتقد بأني أتدخل فيما لا يعنيني، لكن ما يهمني فعلاً هو أندريه. إنه صغير ولا حول له ولا قوة. فهل يمكنني أن أعرف متى ستأتي زوجتك من الشرق؟ كما أرجو أن تسمح له باللعب مع الأطفال الآخرين بعد انتهاء الدراسة ».
وبينما هي تتكلم، لاحظت أن وجه نيل ازداد تجهماً وعبوساً. وعندما انتهت حلّ صمت مطبق على القاعة. وأخيراً خرق حاجز الصمت بقوله:
« هل هذا كل شيء؟ »
أجابت اليسون بصعوبة:
« نعم ».
« إذن سأجيب على السؤال الثاني أولاً. أندريه ولد حساس وضعيف البنية وغير معتاد على الألعاب الخشنة. لقد أمضى معظم سني حياته مريضاً، ولم يبدأ باسترداد العافية إلا مؤخراً. وعندما يتعرف الى المدرسة أكثر سأسمح له باللعب في الخارج. أنا مثلك تماماً أقدر قيمة الهواء الطلق. أما بالنسبة للسؤال الأول، فما هو السبب الذي دفعك

لطرحه؟ »
انفجرت اليسون بصوت عالٍ :
« إذا كنت تريد أن تسأل، فأنت لن تفهم السبب أبداً ».
ردّ باقتضاب وقسوة :
« جربي ».
استجمعت أنفاسها وقالت :
« حسناً، سأفعل. إنني أتكلم بصفتي معلمته الآن، وليس للسؤال أية علاقة بالأمور الشخصية. فهل تفهم؟ »
أجابها، وعيناه لا تحيدان عن وجهها :
« أعتقد ذلك ».
« إنه يحتاج الى حنان امرأة. الى من تكون بجانبه عندما يشعر بالوحدة والضيق كما يحدث معه الآن في هذا البلد الجديد. انه مجرد طفل عاجز دون وجود أمه. لقد سمعت من تلميذ يقطن قرب منزلكم أن أندريه أمضى الليالي الاولى في بكاء ونحيب... وكم كنت حزينة لسماع ذلك. أعرف أن كلامي هذا يبدو سخيفاً وعاطفياً لأن الرجال يريدون أبناءهم قساة وأقوياء... لكن أرجوك أن تهتم به، فهو طفل طيب وممتاز ».
« إنني أصدق اهتمامك به ».
« أجل، إنني مهتمة به كثيراً ».
التقت نظراتهما للحظات في ما يشبه الهدنة المؤقتة. ولمحت اليسون على وجهه ملامح التردد، قبل أن يحزم أمره ويقول :
« سأخبرك الحقيقة. أمه لن تأتي أبداً... فهي ميتة. لقد توفيت قبل وقت قصير في ريو دي جانيرو، وكل ما تبقى له الآن... أنا ».
استوعبت اليسون كلماته ببطء شديد :
« إنني آسفة جداً... لم أكن أعرف ».
« وكيف ستعرفين؟ لقد أخبرتك لأنني أصدق اهتمامك بمصلحة الولد، ولهذا أشكرك. ولكنني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً لو عليه أن ينشأ في عالم صعب، تماماً كما نشأت أنا ».
هزت اليسون رأسها قائلة :

« أرجوك أن تسامحني لأنني سألتك. سأتركك الآن الى حيث أتيت ».
وقبل أن تصل الى باب غرفة الجلوس، توقفت فجأة وسألت :
« ماذا سيحل بالصغير عندما يبدأ العمل في البيت؟ أقصد من سيهتم به ويرعاه؟ »
توقف بدوره قائلاً :
« لم أفكر بهذا الموضوع بعد. اهتمامي الأول كان أن أحضره الى هنا قبل أن... »
تردّد للحظات ثم أضاف :
« سوف أفكر بحل ما. أني سأكون في المنزل، وهناك عدة رجال سيعملون في البيت... وبالتالي لست مضطراً لتمضية وقت طويل في العمل ».
« فكرة جميلة ».
تساءلت اليسون وهي تفتح الباب عما تردد نيال في قوله. فتحت الباب وقالت :
« السيد ماكيين يا أمي ».
شكرها وتوجه نحو الأم مسلماً. خرجت اليسون وكل فكرها مع أندريه. إنه وحيد فعلاً. مسكين هذا الطفل... كم تتمنى لو تستطيع احتضانه بحنان ومحبة.
بدأت معدات البناء تصل الى البيت مع مطلع الأسبوع وعندما عادت اليسون الى البيت بعد ظهر الاثنين شاهدت شاحنة محملة بالخشب يقوم على تفريغها رجلان شابان تعرفهما اليسون من القرية المجاورة. ألقت عليهما السلام وهي تتساءل عما اذا كانا سيقومان بالعمل أيضاً. قابلتها جسي فوراً وقالت :
« أمك في الكوخ، وهي تريدك أن تلتحقي بها بأسرع ما يكون ».
وضعت اليسون حقيبتها على كرسي مجاور وقالت :
« سوف أذهب الآن يا جسي ».
لم تكن اليسون تتوقع المفاجأة التي كانت تنتظرها في الكوخ. وجدت الباب مشرعاً. أصوات تنبعث من الداخل. اعتقدت أن أمها تتحدث مع نيال... لكن الشخص الذي لمحته في غرفة الجلوس مع

السيدة ماكاي لم يكن نيال، بل هو رجل تتذكره تماماً من الليلة المشؤومة قبل تسع سنوات... إنه جوني فوربوش الذي أصبح رجلاً ناضجاً وجذاباً.

أعفت اليسون معطفها وتوجهت الى جوني الذي استدار نحوها مبتسماً ومسلماً بصوته الهادىء العميق:

«أهلاً بك يا اليسون».

تصافحا بحرارة، لكن أفكار اليسون كانت تتساءل. من المؤكد أن هذا الرجل ليس الشاب الذي قابلته نيال في تلك الليلة. كم يبدو مختلفاً الآن. فقد اختفى الشاب ذو العينين الزائغتين وحل محله رجل في الثلاثين، طويل القامة، أنيق المظهر ولطيف المعشر أيضاً.

ردت اليسون:

«مرحبا يا جوني».

قالت الأم:

«جوني سيقوم بعمل ديكورات الكوخ. وقررت أن تناقش الموضوع في البيت. وغداً سيحضر ورق الجدران والطلاء من ابفرنيس».

«وفي الأسبوع المقبل سابدأ العمل في البيت مع الأخوة كاميرون. الآن حصلت على جميع المقاييس اللازمة، وما عليكما الا الاختيار حسب ذوقكما من النماذج التي تركتها لكما».

سألته السيدة ماكاي:

«ما رأيك في تناول فنجان من الشاي معنا؟»

أجاب مبتسماً:

«هذا لطف منك يا سيدة ماكاي».

لمحت اليسون في عينيه شرارة خاصة جعلتها ترتعش وترتجف. قالت الأم:

«هيا بنا من هنا. أعتقد أن هذا الكوخ العتيق سيبدو أجمل بكثير بعد انهاء الديكورات اللازمة».

سار الثلاثة باتجاه البيت. وطوال الوقت كانت اليسون تفكر بالاختيار الغريب الذي قام به نيال:

استغربت كيف أن نيال عرف أن جوني أصبح صاحب محل خاص

لبيع الطلاء وورق الجدران وأيضاً لتنفيذ التزامات معمارية متنوعة. فجوني افتتح المحل في فترة غياب نيال، ومن غير المعقول أن تكون أخبار عمله قد وصلت اليه عبر البحار. والأقرب الى الاحتمال أن يكون نيال قد سأل المحامي عن شخص مناسب، فدله هذا الأخير على جوني. وشعرت اليسون بالخوف لكل هذه المصادفات المتسارعة. وظلت هذه المشاعر تطبع في رأسها حتى بعد أن ذهبت الى فراشها تلك الليلة. بحيث لم يزرها النوم إلا لماماً. كان وجه ابن نيال يلح عليها ويحتل أفكارها طيلة الوقت. كم تتمنى أن تساعده؟ لكنها تعلم أن ذلك محكوم بالساعات القليلة التي يمضيها في المدرسة. وبالفعل، استغلت كل دقيقة منها ومع مرور الوقت لاحظت استجابة منه، وانفتاحاً لتقبل عطفها ومحبتها. إنها تريد النجاح في مهمتها، وتريد أن تراه صبياً طبيعياً وسعيداً.

نهار الأربعاء، رافق نيال ابنه الى المدرسة بعد فسحة الغداء. في هذه الأثناء كانت اليسون قد عادت مبكرة وراحت تراجع بعض الدروس. ودخل الاثنان الى القاعة، فوقفت اليسون لاستقبالهما. وما ان فعلت حتى انتزع أندريه يده من يد أبيه وأسرع نحوها مبتسماً.

«أهلاً يا أندريه».

أمسكت اليسون يد الصغير بحنان، ثم التفتت الى نيال متسائلة:

«هل هناك شيء ما يا سيد ماكبين؟».

الغريب في الأمر أن هدنة غير معلنة كانت تقوم بين الاثنين ما دام أندريه موجوداً، وكأنهما متفقان على التعامل بحذر أمامه.

هز رأسه مبتسماً وقال:

«لا. لكنني جئت أطلب خدمة. هل يمكنك أن ترافقي أندريه الى البيت عند الساعة الرابعة؟ لأن علي الذهاب الى المحامي مع أمك. كنت في زيارتكم اليوم، وقد تعهدت بنفسي برعايته حتى عودتنا».

أجابت اليسون بحماسة لم تكن راغبة باظهارها:

«سأكون على أتم الاستعداد للاهتمام به».

تجهم صمت كثيف للحظات، قبل أن يقول:

«أنا آسف، لم أقصد هذا. فقد تصورت أن تكوني مشغولة بعد

المدرسة! »

هزها اعتذاره بشدة، اذ لم تكن تعتقد أنه قادر على التعامل الانساني مع الآخرين. قالت له بحدة لاعتقادها بأنه يشير الى رغبة السماح لابنه باللعب بعد المدرسة :

« في العادة أنا مشغولة. لكن أندريه هادىء ولا يثير المتاعب - ثم التفتت الى الصغير وهي تداعب رأسه - هل تحب أن ترافقني الى البيت وتتعرف على الكلب راستي ؟ »

إبتسم الصغير دون أن يجيب. فقد كان من عادته أن لا يجيب على الاسئلة في أحيان كثيرة. وأدركت اليسون أن أندريه يفهم كلام الآخرين لكنه لا يبذل جهداً للرد عليهم، وقررت في الوقت الحالي على الأقل أن تترك الأمور على علاتها مدة دامًا متفاهمين ويحققان تقدما في علاقتهما.

نظرت الى الأب مبتسمة وقالت :

« الأمور مرتبة اذن، وسنهتم به الى حين عودتك. واذا لم يكن لديك مانع فنحن نتناول عشاء خفيفاً عند الساعة الرابعة والنصف. ويمكن أن نقدم حسي الشاي أيضاً ».

شكرها نيال والتفت الى ابنه قائلاً :

« هل سمعت يا أندريه؟ كن ولداً عاقلاً. سأرجع لآخذك من بيت الآنسة مالتاي عندما أنتهي من عملي، فوداعاً ».

بعد مغادرته القاعة، قالت اليسون للصغير :

« سوف نلهو في البيت، اليس كذلك؟ »

وكعادته التي أصبحت اليسون تعرفها جيداً، فكر أندريه في السؤال وكأنه يقلبه من جميع أوجهه قبل أن يقرر الاجابة قائلاً :

« لست أدري لنا ما كنت سأحب الكلاب ».

إرتاحت اليسون لجوابه، وقالت :

« حسناً، ستري عند المساء. وأؤكد لك أن راستي كلب طيب ويحب الأطفال الصغار كثيراً! »

فكر أندريه في كلام اليسون لمدة ثوان، ثم هز رأسه دون أن يتكلم، وبعد لحظات تركها ليأخذ معطفه في القاعة. وسرعان ما علت الضوضاء

والضحكات في الخارج، عندما بدأ الأطفال يتوافدون الى الصف بعد الظهر.

تجولت اليسون مع أندريه في مختلف أرجاء البيت. وعندما وصلا الى العلية قالت :

« هناك حصان خشبي في العلية، فهل تريد أن تراه؟ ».

نظر اليها مبتسماً دلالة على الموافقة. ثم صعدا معاً السلم الطويل المؤدي الى العلية.

راقبت اليسون وجه أندريه وقد علت الدهشة والاضطراب وجهه، عندما شاهد الحصان الخشبي الضخم المغطى بغبار كثيف. سألها بعد صمت دام لحظات :

« هل أستطيع أن ألمسه؟ »

ردت عليه قائلة :

« طبعاً. اسم الحصان بيغاسوس . . . وباستطاعتك ركوب صهوته أيضاً ».

وقف أندريه الى جانب بيغاسوس يتأمله بدهشة طفولية واضحة. ثم مد يده بهدوء وراح يداعب الشعر الصناعي الكثيف المسدل على عنق الحصان . . . فاهتز الحصان تحت لمسات أندريه الذي استدار متسائلاً ناحية اليسون.

اقتربت اليسون منه وحركت الحصان بقوة قائلة :

« لا بأس في ذلك. انظر، إنه يتحرك بسرعة الى الأمام والى الخلف ».

وبلمح البصر امتطت اليسون صهوة الحصان وراحت تحركه بسرعة، في حين كان أندريه مستغرقاً في الضحك وقد افترت شفتاه عن أسنان ناصعة البياض :

« إنه حصان جيد. هل أستطيع . . . »

ترجلت اليسون وقالت :

« هيا جرب. سأساعدك بنفسي ».

رفعته الى صهوة الحصان بهدوء. ثم ركزت قدميه وأعطته اللجام الجلدي. وعندما تأكدت من استقراره، أخذت تحرك الحصان بلطف

شديد. عند أول حركة أحست بيده تتمسك بذراعها بشدة وقد تشنج جسده من الخوف. لكن مع مضي الوقت ارتاح في مكانه وأفلت يدها نهائياً، مركزاً على حركة الحصان المتسارعة. استمتع أندريه بهذه اللعبة بحيث نسي كل شيء حوله إلا الحصان، مستغرقاً في الضحك والقهقهة بارتياح شديد. إنه الآن ولد يختلف تماماً عن الولد الحزين المنطوي على نفسه الذي بدا للرابسة قبل أيام. وفكرت اليسون أن الحصان يجب أن يصبح ملكه، وبهذه الطريقة على الأقل تتخلص أمها من قطعة غير مرغوب فيها في الكوخ الصغير.

فجأة، سمعت حركة خفيفة على الباب جعلتها تلتفت، فرأت نيال مكبين واقفاً يراقب المشهد.

قال لها:

« لم أقصد أن أزعجك. كنت فقط أراقب اندريه على صهوة الحصان ».

شعرت بالارتباك وكأنه شاهدها بالجرم المشهود سألته:

« هل أنت هنا منذ وقت طويل؟ »

« دقيقة أو دقيقتين فقط. لم أرد أن أزعجكما ».

أزاحت اليسون عينيها عن نيال، وتشاغلت بالتطلع الى ساعتها قائلة:

« الأفضل أن تذهب الآن، فلا شك أن جيني قد أعدت الساندويشات لاندريه ».

قال نيال دون أن يبعد عينيه عنها:

« أجل، وقد أرسلتني للبحث عنكما ».

استدارت اليسون وأنزلت اندريه عن الحصان قائلة:

« هيا بنا، هل استمتعت بذلك؟ »

نظر اليها بعينين لامعتين وقال:

« لقد أحببت الحصان كثيراً! »

« إذاً سوف أسمح لك والدك بالحصول على الحصان، فإنه هدية لك ».

نظرت اليسون الى نيال وقد أدركت انه كان عليها طرح الموضوع في غياب اندريه.

قطع نيال حبل أفكارها قائلاً:

« هل أنت متأكدة؟ فالحصان للعائلة منذ سنوات طويلة ».

أجابته فوراً:

« تماماً الأكيد. على كل ليس للحصان مكان في الكوخ. والمسن مناسبة أن يأخذه اندريه ».

نظرت اليسون الى الطفل بحنان، فهالها أن تجد في عينيه بعض التمزع. وبحركة غريزية رفع يديه نحوها فانحنت اليه وعانقته بسرعة. ومع أنه كان ضعيف البنية إلا أن يديه تشبثتا بعنقها بقوة غريبة... وهو يهمس في أذنها:

« أنت سيدة رائعة. وأنا أتمنى الحصول عليه ».

وكأنه تذكر أن أباه موجود، لذلك التفت اليه قائلاً:

« أبي هل يمكن أن اقبله؟ »

« أجل يا أندريه. عليك أن تشكر الآنسة ماكاي ».

« أشكرك كثيراً يا آنسة ماكاي ».

« لا ضرورة لذلك! »

سارت باتجاه الباب، واندريه ما زال بين ذراعيها. حاولت في طريقها أن تتجاوز عشرات الكتب والمجلات المتناثرة دون انتظام، ووجدت صعوبة في ذلك لأن اندريه كان يحجب عنها الرؤية السليمة. ولذلك عندما داست على أحد الكتب الضخمة اختل توازنها وكادت تسقط لولا أن نيال كان أسرع اليها، ممسكاً اندريه باليد اليمنى ومحيطاً خصر اليسون باليد الأخرى. استغرقت العملية كلها عدة ثوان فقط. استعادت اليسون توازنها بعدها وسلمت أندريه الى والده الذي أنزله الى الأرض بسلام.

لم تستطع اليسون أن تحدد بكلمات واضحة طبيعة الذي حدث، لكن شيئاً ما تغير في هذه اللحظات. فقد كان الجو مشحوناً بتوتر كثيف ينذر بعواقب غير مستحبة في أية لحظة. لذلك شكرته باقتضاب وأسرعت الى الخارج. وما هي إلا لحظات حتى كانت تنزل السلم برفقة اندريه وكأن شيئاً لم يكن. إنها لأول مرة في حياتها تشعر بقرب رجل الى هذا الحد. صحيح أنها متعبة وقلقة وغاضبة، لكن الصحيح أيضاً أنها تمنت أن يظل اندريه ممسكاً بها الى الأبد. حاولت اليسون استبعاد الأفكار

السخيفة. وفكرت أن صديقاتها سوف يضحكن كثيراً عندما يعرفن التفاصيل، وراحت تتصور التحليل النفسي الساخر الذي سيفسر على ضوئه مشاعر اليسون. وابتسمت اليسون بصمت قائلة لنفسها: «القصة كلها سخيفة ... فنحن نكره بعضنا كثيراً».

انتهى كل شيء، وأصبح البيت قانونياً ملكاً لنيال ماكين. بدأ غوردن العمل في اعداد ديكورات الكوخ، في حين كانت كل معدات البناء اللازمة لتحويل البيت الى فندق جاهزة بانتظار انتقال عائلة ماكاي الى مسكنهم الجديد. هناك الكثير من العمل، لكن بمجرد الانتهاء منه سيغص المكان بالغرباء من كل حدب وصوب. قد يستغرق الأمر عدة أشهر، وفي هذه المرحلة على اليسون أن تتأقلم مع الواقع الجديد.

ولأول مرة تشعر اليسون بالراحة لاختيارها مهنة التدريس، فالانشغال بالتلامذة ومشاكلهم وفروضهم المدرسية لا يترك لها فرصة كبيرة للتفكير في شؤون البيت. وبالاضافة الى ذلك هناك اندريه، الذي استطاع أن يتسلل الى قلبها ويحتل مكاناً بارزاً فيه. وراقبته اليسون وهو يقوى يوماً بعد يوم، ويزداد استقلالاً واعتماداً على نفسه فقد كان ذكياً ومرهف الشعور ويدرك فوراً ما هو المطلوب منه. انها تحبه بكل جوارحها، لكنها كانت مضطرة الى اخفاء ذلك ... فهي لا تستطيع أن تنسى ابن من هو!

أصبحت لقاءاتها مع أمها متباعدة، فالسيدة ماكاي مشغولة هذه الأيام بالرسم والتخطيط واعداد الديكورات اللازمة للفندق. واعترفت لجسي في أحد الأيام أن أمها قد تغيرت كثيراً بعدما صارت حياتها ذات معنى عملي. وأكدت لها أن الرسوم التي أعدتها في هذه الفترة تعتبر من أجمل ما ابدعته يداها. فقد حولت القاعة القديمة - على الورق حتى الآن - الى صالة استقبال حديثة يحسدها أي فندق فخم. وعندما تمعنت اليسون في الرسومات، أحست عمق الحب الذي يحرك أمها في عملها ... والحقيقة أن أي انسان غريب ما كان يستطيع مجاراتها مهما بذل من جهد.

كانت اليسون وجسي تتناولان الشاي بعد ظهر يوم الجمعة في المطبخ الذي يغص بفوضى شاملة تمهيداً للانتقال بعد أسبوع واحد فقط. ألقت اليسون نظرها في المكان، ثم قالت:

«آه يا جسي، سوف يضع أدوات مطبخ جديدة هنا وسيغير الحوض أيضاً. لن يظل البيت كما كان في السابق».

وافقت جسي قائلة:

«هذا صحيح ... وأنا لا أمانع في العمل معه في المطبخ!»

صرخت اليسون:

«جسي؟»

انفجرت العجوز ضاحكة وهي ترى دهشة اليسون، ثم قالت:

«حسناً، ان أمك تعمل معه الآن. وأعتقد أنه سيجد عملاً لي أيضاً عندما ينتهي ديكور الفندق ... وفي كل حال، الفندق يحتاج الى موظفين عاديين».

«هل تقبلين العمل معه ... هنا؟»

«نعم، لكن لبعض الوقت فقط. فأنا لن أتخلى عنك وعن أمك ... لانكما عائلتي. ومع ذلك يجب الاعتراف بأن العمل معه ممتع ومفيد».

سألتها اليسون بدهشة:

«كيف تعرفين ذلك؟»

هزت جسي رأسها وقالت:

«أنا أعرف. لقد قطعت من العمر شوطاً بعيداً بحيث أستطيع الحكم على الناس. ان نيال ماكين رجل شريف وصادق ... ولكن ذلك يعلمك».

نظرت اليسون الى جسي باستغراب قائلة:

«انك تدهشينني برأيك هذا».

«وربما لكنني أقول الحقيقة. ألا ترين بنفسك المواصفات الجيدة التي يحملها؟»

قالت اليسون:

«أجل ... وكلما فكرت بتعاملي معه، كلما كان أفضل بالنسبة إلي».

سألتها جسي بلطف بالغ:

«وماذا عن ابنه؟»

اعترضت اليسون بشدة:

«وأين من العدل المقارنة. اندريه مجرد طفل. وحسب ما أراه فهو لا

يشبه والده مطلقاً، ما عدا مظهره الخارجي. ونشكر الله أن اندريه ليس كما كان أبوه وهو طفل ».

وجهت جسي نظرة صارمة إلى اليسون، ثم ابتسمت وهي تقول:

« هذه هي الحقيقة ».

أدركت جسي فجأة أنها تضيّع وقتها في نقاش لا جدوى منه مع اليسون، لذلك عادت إلى إفراغ الأدراج قائلة:

« الأفضل أن نعمل بسرعة ».

قالت اليسون وهي تقف:

« وأنا سأذهب إلى غرفتي لحزم أشيائي. آه يا جسي، هل تعتقدين بأننا سنكون مرتاحين في الكوخ؟ ».

ضحكت جسي:

« طبعاً سنرتاح. سيكون أصغر وأكثر حميمية... على الأقل لن نكون وحيدين في الشتاء ».

ابتسمت اليسون:

« أتمنى أن تكوني على صواب. بالاضافة إلى ذلك فإن الفندق سيكون خالياً من النزلاء في الشتاء. الحقيقة أني لا أتوقع عدداً كبيراً منهم حتى في الصيف... لكن نيال يبدو واثقاً مما يفعل ».

وهنا لمحت اليسون على وجه جسي تعبيراً غريباً، سرعان ما زال بلمح البصر. لكن اليسون ألحت في السؤال:

« جسي ماذا في الأمر؟ ».

هزت مديرة البيت رأسها قائلة:

« لا شيء... لا شيء أبداً ».

« بل هناك الكثير. إلا إذا أشرت إلى الضيوف حتى تصرفت وكأنك تعرفين شيئاً ».

« حسناً، كل ما هنالك أنني سمعت بعض الشائعات الغريبة ».

واستدارت جسي منشغلة في أغراض المطبخ الكثيرة. لكن اليسون ألحت أكثر:

« شائعات حول ماذا يا جسي؟ ».

نظرت جسي إليها وقالت:

« لن أخبرك بها لأنها قد تكون كاذبة. وأنا لا أريد أن أكون سبباً في اثارة الاضطرابات. أنا آسفة يا اليسون، لكنني لا أستطيع ».

وأصرت جسي على رفض الكلام حول الموضوع. في اليوم التالي اكتشفت اليسون بنفسها ما رفضت جسي البوح به. كانت في مكتب البريد لشراء بعض الحاجيات عندما دخلت امرأة أخرى إلى المكتب، هي اليس قريبة الأخوين موريس ودوري، التي تعيش في منطقة غير بعيدة وتأتي بين الحين والآخر لزيارة قريبتها.

سلمت اليس على اليسون قائلة:

« ألست معلمة المدرسة؟ ».

ردّت اليسون السلام بأحسن ما تستطيع محاولة تجنّب هذه المرأة التي تثرثر أكثر من دوري وموريس. ولكن اليس واصلت كلامها قائلة:

« من المؤسف أن تغادروا البيت الكبير بعد كل هذه السنين. سمعت أنه سيتحول إلى فندق، فهل هذا صحيح؟ ».

أجابت اليسون باقتضاب شديد:

« نعم ». ثم التفتت إلى السيدة فيليبسون قائلة:

« هل جهزت أغراضي يا سيدة فيليبسون؟ ».

تابعت اليس الحديث:

« لا شك أن ذلك الشاب يعرف ماذا يريد لقد قلت لموريس ودوري قبل قليل أنه سيذهب بعيداً بعيداً جداً، وسيحقق ثروة طائلة بعد أن يشق الطريق الجديد. تصوري، هذا المكان العتيق سيتحول خلال سنوات إلى ما يشبه الفابوره.

اضطرت اليسون للاستناد على الطاولة خوفاً من السقوط ايضاً بفعل الصدمة التي كانت قوية بحيث شعرت أن الدم تجمد في عروقها...

وسمعت صوت السيدة فيليبسون وكأنه آت من البعيد:

« ماذا بك؟ هل أحضر لك كأساً من الماء؟ ».

أحست بشفتيها جافتين بابتسام فأقبلت على كأس الماء تشربها بلهفة. ووسط هذا التوتر الشديد كانت اليسون تدرك أن عليها عدم اظهار مشاعرها، وإلا انتشر النبأ بسرعة الصوت في القرية كلها. اغتصبت ابتسامة صفراء وقالت:

« شكراً لك. لقد أحسست بدوخة مفاجئة، أعتقد أنها ناتجة عن نوع من العصبية ».

ثم نظرت إلى إليس وقالت:

« كنت تحدثني عن الطريق الجديد؟ لا شك أنه سيحدث تغييراً ملحوظاً. ولا أعتقد أن الكثيرين يعرفون عنه شيئاً حتى الآن ».

ابتسمت إليس بخبث قائلة:

« من المفروض أن يكون سراً، لكن أخي يعمل في البلدية وقد حصل على التفاصيل من هناك ».

وأخيراً قررت السيدة فيلبسون التدخل بعد أن كانت صامتة طيلة الوقت:

« أعتقد أن نيال ماكين عرف التفاصيل من عمه الأكبر الذي يعمل في مشروعات الطرقات الرئيسية في إنفرنيس ».

ثم التفتت إلى ليسود قائلة:

« كان عليكم التمسك بالبيت الكبير، إذ يبدو أنه أصبح مركز كل الحركة في القرية. ونحن مقبلون قريباً على نشاط ملحوظ في كل المجالات ».

وفي النهاية استطاعت ليسود الهرب من مكتب البريد، وعندما وصلت إلى مكان منعزل أخذت ناحية مخفية ووضعت حاجتها أرضاً. كانت ترتجف اضطراباً وغضباً... اضطراباً لأنها فوجئت بالأنباء من مصادر مختلفة، وغضباً من الرجل الذي سرق منها البيت منهم. فهو قد عرف أن طريقاً جديداً سيشق ومنتجعات سياحية ستقام، وهذا بالتالي سيضاعف سعر البيت في غضون أسابيع من إعلان الأنباء... لكنه اشترى الجميع واشتراه بسعر بخس.

فكرت بمرارة أن نيال كان ذكياً... وذكياً جداً. لا شك أنه كان يضحك في سره كلما اجتمع وإياها إلى المحامي. وما عرضه العمل على السيدة ماكاي إلا لإبقائها صامتة. وحتى إن سمعت الشائعات لم تتفوه بكلمة لأنها عاجزة عن التأثير في شيء. وأحست ليسود بالألم الشديد لهذه الخيانة المستترة... وفكرت أنه حقق الانتقام الذي ينشده وأكثر.

كم كانت مخطئة عندما اعتقدت قبل أيام، عندما كانت مع أندريه في الحقل، أنها عرفت جانباً آخر من شخصية نيال. فهو لم يتغير أبداً.

والسنوات لم تزده إلا قسوة واحتيالاً. وما إن انحنت لالتقاط حوائجها مجدداً حتى سمعت صوته من الخلف قائلاً:

« سأحملها عنك »

التفتت ليسود بفعل المفاجأة، والتفتت لتجد نيال مقبلاً نحوها.

٥- ارجوحة الحب

انتظرت اليسون حتى اقترب منها نيل، وهي تراقبه بعينين يطفح منهما الحقد والاشمئزاز، وقد ظهرت على وجهها علامات الحزن العميق. سألها بدهشة حقيقية وهو يهم بحمل الأشياء:

«ماذا بك؟ ماذا حدث؟»

لم تجب، بل عمدت الى انتزاع الحاجات من يده بشراسة. فنظر اليها مجدداً دون [illegible]

وحسناً [illegible] حلقها.

التفت [illegible] اليسون [illegible] تواجهه بعد حادث قالت:

«سمعت الآن أن هناك طريقاً جديداً سيشق في القرية ويربطها بالجنوب مما سيؤدي الى زيادة السياح الذين سيقصدون مركز التزلج المخطط له منذ مدة»

ظل صوته هادئاً وهو يقول:

«وماذا يعني ذلك؟»

وساعدت اليسون كي تبقي صوتها منخفضاً:

«هل كنت تعرف بالمشروع من قبل؟»

ابتسم نيل بلطف ولا مبالاة في حين كان صدر اليسون يغلي غيظاً وكراهية. قال لها:

«اذن، هذا كل ما في الأمر!»

ارتفعت حدة صوت اليسون وهي تقول:

«هل كنت تعرف أم لا؟»

«ربما»

«اذن، أنت سرقت البيت منا. عرفت بالمشروع، ومع ذلك تركت أمي تبيع البيت بسعر بخس... لقد...»

وهدج صوت اليسون بالتوتر قبل أن تتمالك نفسها وتضيف:

«إنك مجرد لص حقير!»

تقلصت عضلات وجه نيل واحتقنت عيناه بالغضب الشديد... إلا أنه ظل محافظاً على صوته المنخفض:

«لو كنت مكانك، لما استعملت هذه الكلمات القاسية»

ردت بعصبية ظاهرة:

«ولماذا لا؟ لا يوجد أحد يشهد ضدي. وسأقول ما يحلو لي. أستخدع لقد راهنت على جهل أمي بتفاصيل المشروع... وربحت. لا تنكر، ولذلك حصلت على البيت بأبخس الأسعار. فهل أنت فخور بما فعلته؟»

«وهكذا تعتقدين اذن؟ كل شيء بالنسبة إليك أبيض أو أسود ولا شيء بينهما [illegible] فأنا اذن لص [illegible]»

[illegible] وجدها في مكانها.

جذبها نيل نحوه قائلا:

«إياك أن تديري ظهرك عندما أتكلم معك. تذكري أنك بدأت المشكلة! وعليك أن تتعلمي علم الحرب في منتصف المعركة وإلا كانت الخسارة من نصيبك»

«دعني أذهب»

حاولت اليسون بشدة أن تتخلص من قبضته الحديدية، لكن من دون جدوى. قالت وصدرها يخفق بسرعة متهورة:

«لا فائدة من الكلام معك. في كل حال، لقد أصبح البيت ملكك... وانتهى الأمر»

قال:

«لكنني لم أنته معك بعد. يبدو أنك تعتقدين أن بإمكانك اطلاق الاتهامات كيفما يحلو لك وساعة تريدين... فقط لأنك اليسون ماكاي»

تطردي هذه الأفكار نهائياً من رأسك. فأنا لا أقبل أن يصفني أحد بالنعوت التي أطلقتها. ولتعلم فقط، فأنا لا أكذب أبداً. لم أفعل هذا عندما كنت صغيراً، ولا أنوي أن أبدأ اليوم. لقد دفعت سعراً مناسباً ثمناً لبيتكم، وإذا كنت لا تصدقين، فعليك أن تسألي أمك! »

أحست اليسون في نبرات صوته شيئاً جعلها تخفف من محاولاتها لتتخلص من قبضته. فهو لم ينف معرفته بالمشروع، لكن التأكيدات التي أطلقها حيّرتها كثيراً . . . خاصة أن وجهه لم يظهر أية اشارة تدم. وفجأة استرجعت اليسون ذكريات كلمات عفوية ألقيت في ساعة غضب في احدى المعارك بين نيال وأبيك وكانت اليسون هي الشاهدة عليها . . . كلمات نسيها الجميع الا هي.

قالت:

« قلت قبل قليل إنك لم تكذب في حياتك أبداً. انك ما قلته عندما كان عمرك احدى عشرة سنة صحيح مئة في المئة ».

« ماذا قلت؟ »

حتى الآن لم تتغير نبرة صوت نيال، وهذا ما زاد من خوف اليسون وتوترها. لكنها مضطرة لمواصلة المعركة من أجل كشف كل الحقيقة مهما كلف الأمر. لذلك واصلت كلامها بعد أن رطبت بلسانها شفتيها الجافتين:

« قلت لأبيك بعد تلك المعركة ان بيتنا هو في الحقيقة بيتكم، وان عائلتكم يجب أن تكون فيه بدلاً من عائلتنا ».

انعقد حاجبا اليسون تعجباً، ثم التفتت الى قبضة يده على ذراعها وقالت:

« اترك يدي ».

أطلق نيال سراحها دون تردد. وفجأة لمحت اليسون على وجهه تعبيراً حزيناً سرعان ما زال تاركاً خلفه نظرة قاسية متصلبة:

« لديك ذاكرة أقوى بكثير مما تصورت ».

« ماذا قصدت بكلامك في ذلك الوقت؟ »

أجابها ببطء:

« المسألة غير مهمة الآن ».

« بل هي مهمة جداً. فأنا كنت كالشبح صادقاً، في قلبه أعماقك بكل الحقيقة من وجهة نظرك. لذلك أريد أن أعرف ماذا قصدت؟ »

« قلت لك أن تنسي المسألة كلها. انتهى الأمر وأصبح البيت ملكي الآن؟ »

ولأول مرة أحست اليسون بحدة صوته تعلو وتصبح أكثر قسوة، فأدركت على الفور أنها لمست عصباً حساساً في شخصيته لذلك واصلت الكلام قاصدة إيذاءه قدر الامكان:

« لم يبق أمامي الا أن أخمن بأنك سرقت البيت من عائلة مالكين في الماضي البعيد . . . ربما قبل بدء النزاع؟ هل هذه هي الحقيقة؟ أخبرني؟ »

كان صوتها حاداً واستفزازياً. فهي تدرك أن هناك شيئاً أعمق من النزاع العلني بين العائلتين، ولذلك تريد معرفة الخلفيات كلها. وما ان استدار نيال محاولاً مغادرة المكان حتى حالت دون اليسون لايقافه صارخة:

« هيا أخبرني »

لم تر اليسون وجه نيال الا لحظات معدودة، الا سرعان ما وجدت نفسها بين ذراعيه في عناق قاس متحجر. شلتها المفاجأة، ولكنها استعادت ادراكها وأبعدته عنها بحدة، صارخة في وجهه:

« كيف تجرؤ على ذلك؟ »

حدث الأمر نفسه قبل تسع سنوات في اللحظة ذاتها تقريباً . . . حقاً مع تغيير كبير . . . فقبل تسع سنوات كان نيال شاباً مراهقاً، أما الآن فهو رجل ناضج صقلته التجارب الكثيرة التي عرفها في العالم الخارجي.

قال لها:

« هذا هو الجواب الوحيد الذي ستحصلين عليه مني. فيا حبذا تقبليه الآن ».

كان صوته قد فقد هدوءه، وباتت الكلمات تخرج مسرعة من فمه. وفجأة لاحظت اليسون أن العناق ترك تأثيراً عليه أكثر مما تصورت. فقد كانت عيناه محتقنتين وغائمتين في ذلك الصمت المتوتر الذي خيم عليهما.

قالت في محاولة لتكسر جدار الصمت الذي زاد من حدة توترها:

« اذا كانت هذه هي طريقتك في الرد على الأسئلة فلا شك أن حياتك صعبة للغاية. ومع ذلك أحذرك من اعادة الكرة مرة أخرى، والا فانك

ستنام ».
ارتسمت ابتسامة ساخرة على طرف فمه وهو يقول :
« تهديدات؟ لم أرد على كل تهديد بما يناسب. شخصياً، أنا أؤمن بالتحديات فقط . . . وعليك أن تتذكري ذلك دائماً يا آنسة ماكاي ».
حوّل عينيه إلى الحاجيات المرمية على الأرض، ثم حملها وسلمها إلى أليسون قائلاً :
« وأنا لا أعرض مساعدتي أكثر من مرة ».
تركها واقفة في مكانها وواصل سيره نحو البيت دون أن يلتفت إليها. وظلّت أليسون دون حراك وقد أدركت أنها خسرت أيضاً معركة أخرى.
وأخيراً بدأ العمل في البيت. وقررت عائلة أليسون الانتقال إلى الكوخ يوم الأربعاء، أي بعد يوم واحد من انتهاء ديكوراته. وعندما عادت أليسون من المدرسة بعد ظهر يوم الثلاثاء، أدهشتها الجدران البيضاء وسط الحدائق الخضراء الداكنة. وفي الداخل، كانت رائحة الطلاء الحديث تعبق في كل مكان وقد بدت لمسات جوني الفنية في الغرف كلها. ابتسمت أليسون بسرور، وتساءلت كيف أنها فكرت بما سيكون عليه رد فعل الكلب راستي في بيته الجديد. ولذلك قررت أن تضع سلته في غرفتها على الأقل في الفترة الأولى.
سمعت أليسون صوت رجل من مكان قريب، فتوترت أعصابها على الفور خوفاً من أن يكون القادم هو نيال الذي لم تره منذ السبت الماضي. فهي غير راغبة في رؤيته، وقد زاد في استفزازها منه كونه قد دفع تكاليف عمل الديكورات للكوخ. أما الأم فكانت مسرورة جداً ولكن لم تشعر ابنتها بالمشاعر نفسها. فكرت أليسون أن أمها غير قادرة على فهم دوافع نيال كما تفهمها هي. وحتى عندما حدثت أمها عن الطريق الجديد، ردّت عليها مؤكدة أن كل تصرفات نيال كانت صادقة وواضحة. وأضافت السيدة ماكاي تقول أن الطريق غير مؤكد بعد، ومن الخطأ المراهنة على انجازه في القريب العاجل. وأشارت ساخرة إلى أن الجميع يعرفون أن المشاريع تظل لسنوات حبراً على ورق قبل أن تجد طريقها إلى التنفيذ. واضطرت أليسون في النهاية إلى الاستسلام لمنطق أمها مع أنها لا تقبله.
التفتت أليسون لتجد جوني غوردون يقترب منها، فشعرت بارتياح عميق

وقالت له على الفور :
« كنت تأمل عملك الجميل. لقد قمت بأكثر مما يجب بخاصة هناك ».
وأشارت بيدها إلى ناحية المطبخ حيث حلّت الأدراج والمعدات البيضاء الحديثة تظهر انتظامها الرائع. ابتسم جوني ونظر إليها باهتمام، مما جعلها ترتبك خجلاً. فهي تستطيع ملاحظة نظرات الاعجاب في عيون الرجال. ولكنها لم تعد مراهقة صغيرة تؤثر فيها المواقف المفاجئة.
خاطبها بهدوء دون أن يحوّل عينيه عنها.
« إنه عمل لا بأس به ».
أدركت أليسون وهي تراقبه أنها أخطأت عندما اعتقدت أنه تغيّر. لا، ما زال الشاب ذاتياً بداخله. ولذلك عليها أن تراقبه بحذر . . . فهو رجل الآن ولم يعد ذلك الطفل الطري العود.
« هل ستنتقلون غداً يا أليسون؟ »
« أجل . . . هذا اذا استطعت أن أتغيب عن المدرسة غداً. لكن الأمر يبدو مستحيلاً لعدم وجود معلمة بديلة في المنطقة ».
« حسناً. أنا والأخوان كاميرون سنكون هناك، وسنقوم بنقل كل الأغراض التي تريدها أمك. أما الأثاث الباقي في البيت الكبير فسيحفظ في احدى الغرف التي لم نجر فيها أي تعديل ».
عضت أليسون على شفتها عندما ذكر جوني موضوع الأثاث. فقد تذكرت كيف أنها أجهشت بالبكاء عندما أخبرتها أمها أن نيال يرغب في شراء الأثاث القديم. لعل هذا الحل يبدو بالنسبة إلى السيدة ماكاي أفضل من بيع الأغراض في مزاد علني. فالأثاث مصنوع من الخشب المصقول الغالي الثمن، ومن غير المناسب أن تذهب كل قطعة منه إلى مكان مختلف. ولكن هذا لن يحدث، وسيذهب معظم الأثاث إلى غرفة مقفلة حتى اشعار آخر.
قالت أليسون مبتسمة :
« الآن، سأعود من المدرسة وأجد كل شيء منتهياً ».
لكن ابتسامتها لم تخدع جوني، الذي نظر إليها بحدة قائلاً :
« هذا صحيح. لا شك أنك ستجدين صعوبة في العيش في الكوخ بدلاً من البيت الكبير؟ »

تشاغلت أليسون بالنظر في الخزائن وهي تقول :
« ستعود على الواقع الجديد. كما أن جوني سيجعل الحياة هنا أسهل... على الأقل في المطبخ ».
هز رأسه موافقاً، ثم نظر إلى ساعته وقال :
« حسناً إذن. الأفضل أن أذهب الآن، فعندنا عمل كثير غداً صباحاً. فكلما أسرعنا في نقل الحوائج أنجزنا العمل في وقت مبكر ».
استدار جوني عندما سألته أليسون فجأة :
« كيف حدث أن اشتركت مع ماكين لإعداد الديكورات اللازمة؟ »
« السيد ستيوارت هو الذي رتب كل شيء. ألم تعرفي ذلك من قبل؟ »
أجابته بمرارة انسحبت من خلال صوتها المتهدج :
« لم أعرف إلا القليل عن مشاريع السيد ستيوارت والسيد ماكين... ».
حدق جوني مجدداً بأليسون قائلاً :
« إذن هذه هي القصة ».
« أية قصة؟ ».
قال :
« أنت تعرفين كيف تنتشر الشائعات في القرية. فالنزاع بين العائلتين لم يبتعد عن أذهان الناس الذين يتذكرون ذاكرة حية كما تعرفين ».
« لقد عشت في هذه المنطقة طيلة حياتي، وأعرف جيداً طبيعة الناس يا جوني ».
« يقولون انه غني. ويقولون انه يحقق دائماً ما يصمم على تحقيقه ».
إذن ليست أليسون وحدها التي ترى هذا التغيير. سألته بهدوء :
« وأنت ماذا تقول؟ ».
أجاب بهدوء :
« أعتقد انهم محقون في أقوالهم. ويمكنني التأكيد أن العمل معه على أحسن ما يرام، وليس هناك مجال لإضاعة الوقت. فهو يحدد الأمور المطلوبة، ويريدها أن تتحقق على أكمل وجه. انه يدفع جيداً، ولا شك انه سيحصل على عمل متقن من جميع العاملين ».

قالت وهي تتوجه إلى الباب :
« أنا متأكدة من ذلك. بالمناسبة هل ترغب في كوب من الشاي قبل ذهابك؟ ».
ابتسم فجأة وقال :
« كنت آمل أن تطلبي مني ذلك ».
سارا جنباً إلى جنب عائدين إلى البيت وسط الأشجار الكثيفة التي تفصل الكوخ عن بقية المكان. وكانت أليسون غارقة في أفكارها بحيث لم تنتبه إلى أين تقودها قدماها، إلى أن علقت بعض الأغصان اليابسة في شعرها المنتثر فاضطرت للتوقف فجأة.
توقف جوني أيضاً واستدار ليساعدها على التخلص من الأغصان العالقة. قال بدهشة واضحة :
« عليك الانتباه إلى أين تقودك قدماك! انتبهي هناك العديد من الأشواك التي ستعلق في شعرك إلى أن تغسليه ».
أحست أليسون أن جوني يتعمد إطالة الوقت لإبقاء يديه في شعرها لذلك ابتعدت عنه ضاحكة وهي تدرك ما يدور في رأسه ألا يكفيها ما حدث معها في الغابة حتى الآن.
لحق بها بسرعة وأمسك ذراعها قائلاً :
« هل اعتقدت أنني أوشكت على احتضانك؟ »
أجابت أليسون متصنعة الدهشة دون أن تتوقف :
« لا... أبداً ».
أخذ يضحك وهو يقول :
« حسناً، كنت سأفعل. فلا تقولي إني لم أحذرك. فأنا سأحاول مجدداً ».
رمقت أليسون وقد لاح البيت أمامها :
« هل ستفعل الآن؟ على كل أشكرك على التحذير. لقد بات علي أن أبتعد عنك قدر الإمكان، أليس كذلك؟ ».
نظر إليها بطرف عينه متسائلاً :
« هل ستبتعدين؟ أرجوك ألا تفعلي. كانت أحد الأسباب التي دفعتني إلى قبول العمل هنا ».

انفجرت بدهشة حقيقية هذه المرة :

«حقاً يا جوني؟».

«أجل إنها الحقيقة. كم تمنيت أن أرى كيف أصبحت بعد كل هذه السنين. لقد رأيتك عدة مرات... لكن من بعيد. وكنت أخشى أن أقترب منك وأتحدث إليك... إني لم أنس أبداً ليلة الرقص تلك...».

استدارت إليه غاضبة!

«لا، أرجوك، إنها إحدى الليالي التي أريد نسيانها تماماً».

تراجع إلى الخلف مندهشاً وقال :

«أنا متأسف... ماذا فعل بك يومها؟»

«نيك ماكيو؟ لا شيء. لماذا تسأل هذا السؤال؟»

ابتسم وهو يفرك حنكه، ثم قال :

«لأنني تحدثت تلك الليلة على أمل الانفراد بك، لكنني تلقيت لكمات مركزة على حنكي، لذلك من حقي أن أسأل».

جاهدت اليسون كي تحافظ على هدوئها، وتمنع نفسها من الضحك :

«أنا متأسفة يا جوني، لكنك كنت مخطئاً. فهو لم يقصد إلا صيد السمك».

«ليس هذا ما قاله لي».

أحست اليسون بنغمة حادة في صوته جعلت البسمة تختفي عن شفتيها، فسألته بهدوء :

«وماذا قال لك؟».

نظر إليها وكأنه ندم على إثارة الموضوع مجدداً :

«آه، لا شيء مهم. لقد مضى زمن طويل...»

«أرجوك أن تخبرني».

«قال لي، إنها لي أيها الولد، إنها لي وليست لك. ولن أنسى أبداً تعبير وجهه عندما قال هذه الكلمات... أبداً».

عادت كلمات جوني، والطريقة التي تحدث بها، إلى ذهن اليسون في الليلة التالية. كان الوقت متأخراً، وقد أوت أمها وجيمي إلى فراشيهما بعد عملية النقل المتعبة. نقلت اليسون نظرها في غرفة النوم الجديدة، ثم ركزتها على الكلب راستي الذي حرك ذنبه بتكاسل وكأنه يشعر بحزن

صاحبته. كانت الغرفة أصغر بكثير من غرفتها السابقة في البيت. ومع أن ورق الجدران كان من اختيارها، إلا أن هذا المكان ليس بيت العائلة وبيت الطفولة والأحلام. أطفأت اليسون النور وتوجهت إلى النافذة تتأمل من خلالها مياه الخليج. كل شيء في الخارج ساكن، وحده القمر البدر كان يتحرك في السماء الصافية. ضاقت أنفاس اليسون، فاستدارت إلى الداخل لتجد عيني الكلب تنظران إليها بأسى وحزن. قالت :

«هل تريد أن تذهب بنزهة يا راستي؟».

هب الكلب عندما سمع كلماتها، فضحكت اليسون وهي تقول :

«هيا بنا أيها العجوز. دعنا نتنزه على شاطىء البحر قليلاً».

تسللا من الكوخ بهدوء بعد أن تركت اليسون الباب مغلقاً كي لا تزعج الآخرين عندما تعود.

كان الطقس في الخارج بارداً. سارت اليسون وإلى جانبها راستي الذي بدا مستمتعاً بالحركة بعد نهار مليء بالتعب لكل الناس. وسرعان ما وصلا إلى الشاطىء، فاختارت اليسون صخرة مرتفعة لتجلس عليها متأملة المياه في حركتها مع الرمال والحصى. إنها تحتاج إلى ما يعيد إليها الطمأنينة بعد ذلك النهار الطويل... وما هي إلا لحظات حتى كانت السكينة قد تسللت إلى نفسها وتمكنت منها.

راحت اليسون تتأمل الخليج الساكن في عتمة ذلك الليل الفضي. كل شيء يتنفس ببطء، البحر، والأشجار، والقمر، والصخور... والصوت الوحيد المسموع كان ارتطام الأمواج بالحصى الصغيرة ممزوجاً بحفيف أوراق الأشجار المجاورة. وفي هذا الجو الحالم بالجمال، تأكدت اليسون أن أحداً لن يستطيع أن ينتزع منها هذه الطبيعة الخلابة... التي ستظل مزروعة في قلبها إلى الأبد.

حان وقت العودة إلى الكوخ. فقد أصبح الجو أكثر برودة والنسيم أشد قوة. نهضت اليسون ونادت الكلب الذي أسرع إليها من دون تردد... وبعد أن قطعت مسافة قصيرة، تنبهت إلى أنها تسير باتجاه البيت وليس الكوخ.

قالت تحدث نفسها بصوت عال «ولم لا؟»

فالتفت إليها الكلب مستغرباً. إلا نظرة واحدة أخيرة على البيت الكبير

الفزع بعد التغييرات التي طرأت عليه قد تقضي على بعض القلق في نفسها. . . وفي الوقت نفسه ستكون نظرة الوداع الأخيرة.

واصلا السير بهدوء، وصوت الحصى يتردد تحت أقدامهما. وأخيراً لاح البيت مجللاً بالنور الفضي في ذلك الظلام الحالك.

بدا المكان مهجوراً وكأن سكانه رحلوا منذ سنين عديدة. صعدت السيدة درجات السلم الأمامي ثم دخلت إلى الصالة الرئيسية التي تغيرت تماماً عليها بعد أن خلت من الأثاث المعهود. . . وفجأة أحست السيدة بأن الروح التي عرفتها منذ سنين قد غادرت البيت إلى الأبد.

نظرت إلى الكلب الواقف بالقرب منها، ثم انحنت إليه واغرقت وجهها في فروه الجميل هامسة:

«إنه لم يعد ملكنا يا رامبي».

همهم الكلب بصوت خافت وذيله لا يتوقف عن الحركة. انسكبت الدموع حارة من عيني السيدة وبللت فرو الكلب الساكن بين ذراعيها. كان عليها ألا تأتي إلى هنا، لقد انتهى الأمر وانقضى. ولكن الذكريات ظلت تهاجمها حاملة معها كلمات نيل ماكين التي قيلت قبل سنين طويلة حول البيت. . . وأيضاً كلماته التي قالها لها بعد ذلك بيومين. لعلها كلمات لم تعن شيئاً أطلقها شاب مراهق ليتزوج فتاة مع شاب آخر، لكنها أثارت الخوف في نفس السيدة وكأنها توقع لما سيحدث مستقبلاً. . . أغمضت عينيها بألم محاولة قطع شريط الذكريات التي تلح عليها. من الأفضل أن تبعد هذه الأحداث إلى مخزن الذاكرة، فما مضى قد مضى ولا ضرورة لنبش الماضي كل لحظة.

«هيا بنا يا رامبي».

انتهت لحظة الوداع، وآن الأوان للعودة إلى الكوخ. وقفت بتثاقل لتهدأ النفس.

وفجأة تقوس ظهر الكلب بتوتر، وأحست السيدة بالخوف الشديد عندما سمعت وقع أقدام في القاعة ذات الأرضية الخشبية.

«يحق السيد من هنا».

وأول فكرة طرأت على ذهنها كانت، «كيف يظهر فجأة وعلى غير انتظار عندما يكون تفكيري مشغولاً به». . . ثم ملأها الشعور بالخوف والقلق.

قالت له وهي تشكر ربها أنه غير قادر على رؤية آثار الدموع في عينيها:

«كنت على وشك الذهاب».

وقف نيل في الباب صامتاً، ثم نادى الكلب الذي أسرع عند قدميه. وعندما مدّ يده لإضاءة النور، صرخت السيدة:

«أرجوك، لا تفعل!».

توقفت يده قليلاً، قبل أن يسقطها إلى جانبه، ثم قال بهدوء:

«لست متأكداً من وجود التيار الكهربائي، في أية حال».

تلعثمت وهي تقول:

«أه صحيح. سيأتي الموظفون غداً لوصل التيار بالعداد».

ثم سارت نحو الباب قائلة:

«أرجو أن تسمح لي بالذهاب الآن».

اعترض طريقها بلطف:

«ولماذا العجلة؟».

أجابته في مودة تردد:

«لا أستطيع البقاء أكثر».

«لا تستطيعين أو أنك لا تريدين؟».

ومرة أخرى، عاد إليها الإحساس بالضيق ممزوجاً بغضب مكتوم. لذلك صرخت بنبرة حادة:

«المسألة غير مهمة أبداً. . . أريد فقط أن أخرج من أملاكك!».

سألها بهدوء:

«الآن ماذا حدث من الأمس؟».

«لا أتوقع منك أن تفهم، لذلك لن أضيع وقتي في الشرح. هل تسمح لي بالمرور؟».

«بعد دقيقة فقط. حتى أتأكد من أن الأبواب والنوافذ مغلقة، خاصة أن هناك مجموعة من المشردين يقيمون في مكان قريب، وبينهم عدد من الشبان المرحين. وأعتقد أن إغلاق الأبواب أفضل في مثل هذه الظروف».

«أغلقها إذن أما أنا فسأذهب».

«سوف أرافقك في طريق العودة إلى الكوخ».

تحدثت اليسون عنه وكأنها خائفة من شيء ما :
« لست خائفة من المشردين، فهم غير مؤذين كما تتصور ».
« هل هم مسالمون فعلاً؟ هل ستخافين لو التقيت أحدهم في الليل؟ »
ضحكت بسخرية :
« كلا، ولا أريد أن ألتقيهم الآن. في كل حال، أنا أشعر بالأمان معهم أكثر مما لو كنت معك ».

وبلمح البصر عبرت اليسون الباب وهي تشعر بالسرور للقسوة التي واجهت بها نيال. وما ان وصلت الى أسفل السلم حتى أضاء النور الكاشف، فالتفتت لتجده واقفاً وسط القاعة يتأمل المكان بهدوء.

شعرت اليسون بضعف شديد بعد صدمة رؤيته في البيت، مما زاد في كرهها العميق له. وتساءلت عما يجري حقاً هنا؟ لقد تجاوزت فترة المراهقة منذ مدة، فلماذا اذن، كلما واجهت نيال ماكوين، تنتقل فوراً الى حالة الدفاع عن النفس؟ ووجدت نفسها تسترجع كلمات جوني نقلاً عن نيال... الذي يقول انه لم يكذب في حياته أبداً. لقد استطاع انتزاع كل شيء منها، فهل يريد أن يحصل عليها أيضاً؟ وأقسمت اليسون في سرها أن تمنعه وأن تحبط كل محاولاته في هذا المجال.

مرّت الأيام بسرعة وأصبح الكوخ شيئاً حقيقياً بالنسبة اليهم. كان الطقس سيئاً، وبات من الصعب رؤية أحد خاصة ان الجميع يعملون داخل البيت الكبير. وانشغل نيال ماكوين مع العمال يومياً، لكنه كان يذهب في بعض الأحيان لتفقد أحوال ابنه... أما فيما عدا ذلك، فقد قام بالتهيئة للعجوز فيرغوس. وأحست اليسون بالحزن لأوضاع الطفل اندريه، ليس لأن الجد العجوز يمكن أن يسيء معاملته، بل لأنه مشغول بمتابعة نتائج سباق الخيل والمراهنات... ولا شك أن الصغير كان يشعر بالوحدة القاتلة في ذلك البيت، وبالأخص أن الطقس الممطر جعل اللعب في الحدائق أمراً مستحيلاً.

وفي أحد الأيام الممطرة قررت اليسون أمراً مفاجئاً. كانت قد وصلت مع اندريه الى عتبة الكوخ، ولما لم تجد سيارة نيال أمام الباب التفتت الى الصغير قائلة :
« يمكنك ان ترافقني الى بيتنا اذا سمح لك جدك ».

نظر اليها اندريه وقد انفرجت أساريره :
« سوف أسأله ».
دلف اندريه الى الداخل في حين ظلت اليسون منتظرة في السيارة. لم يحدث أن تكلمت في حياتها مع العجوز فيرغوس، لكن حدسها يؤكد لها أنه لن يرفض السماح لاندريه بمرافقتها.
بعد لحظات خرج الصغير من البيت مسرعاً، ودخل السيارة وهو يقول :
« لقد وافق جدي. قال إن أبي في البيت الكبير ولذلك فلا مانع من ذهابي الى هناك ».
أطلقت اليسون العنان لسيارتها قاصدة البيت. عليها أولاً أن تخبر نيال أن ابنه موجود معها. أوقفت سيارتها أمام الباب الخلفي وطلبت من اندريه انتظارها ريثما تعود.
دخلت الى المطبخ فوجدته عارياً من كل شيء، باستثناء ابريق لصنع الشاي وبعض زجاجات الحليب الفارغة. عادة أن يكون المكان خالياً بعد أن افرغ من أغراضهم ومن حسي أيضاً. التقطت أذناها صدى طرقات وغناء خافتاً منبعثاً من مكان في الداخل. توجهت الى القاعة الكبيرة وصرخت « هل هناك احد؟ ». وفجأة توقف الغناء، وتوقفت الطرقات، وسمعت اليسون صوت أقدام تنزل السلم الخشبي ببطء. وأخيراً ظهر جوني بلباس العمل، وما ان لمحها حتى قال بابتسامة مشرقة :
« مرحباً يا اليسون، هل تريدين شيئاً؟ ».
« مرحباً يا جوني، اني ابحث عن رب العمل، هل هو هنا؟ ».
هز رأسه مشيراً الى الخلف :
« انه يعمل في العلية. هل تريدين أن أبلغه رسالة ما؟ ».
كان جوني قد أصبح قريباً من اليسون التي احست بمزيد تطلعاتها شغفه. ابتسمت له بحرارة وهي تقارنه بالرجل القاسي الذي سرق منها بيتها. على الأقل جوني لطيف معها، ومنجذب اليها بشكل مكشوف. ومن العبث محاولة انكار هذا الواقع الذي يجعل جوني على علاقة في كل المناسبات.
وفجأة وقع شيء غريب. فقد رأت اليسون على رموش جوني بعض

الفلاة، وخوفاً من أن يسقط في داخل العين القريبة منه وأزالت الغلالة بسرعة. وعندما حاولت ابعاد يدها، كان جوني أسرع واحتفظ بكلتا يديه كفيها الدافئ، الناعم.

شكرها جوني وانحنى لتقبيل يدها. وكانت على وشك أن تبعد يدها بسرعة عندما استرعت انتباهها حركة مفاجئة، فهذا ما ترى نيال واقفاً صامتاً في أعلى السلم. وبغريزة لم تدر لها معنى، توقفت عن سحب يدها... بل تركتها بين يدي جوني بحرية ودلال وهي تتضاحك مسرورة. كانت عيناها تراقبان نيال، وأحست بالخوف عندما شاهدت موجات من الغضب تظلل كافة قسمات وجهه... وتذكرت المعركة التي دارت بين الاثنين قبل تسع سنوات. وأخيراً حطم نيال الصمت، وقال بصوت هادئ، لا انفعال فيه:

«هل تريدين رؤيتي؟ لقد شاهدت سيارتك من النافذة».

استدار جوني ببطء وقد أدرك أنهما ليسا وحيدين. أما اليسون فقد ردت قائلة:

«نعم. سأحضر اندريه معي إلى البيت في هذا الطقس الماطر».

«شكراً لك. أنا آسف لأن الوقت مضى بسرعة دون أن أدري».

سيكون معي في الخارج إلى أن تنهي عملك. ولقد اخبرنا والدك بالأمر أيضاً».

«حسناً. إذا وجدت صعوبة في ذلك، فأرجو أن تحضريه إلى هنا كي أهتم به بنفسي».

«لا بأس أبداً».

ثم التفتت إلى جوني قائلة:

«إذا أردتم زيارتنا بعد انتهاء العمل، فسأعد لكم الشاي بالخارج».

«فكرة ممتازة. هل عندك مانع يا نيال؟».

هز نيال رأسه بالنفي ثم اختفى في الداخل... وعندما احست اليسون بشيء غريب أعطاها دفعة من التشفي والسرور. ذلك أن حركة جوني الغريبة كانت قد أغضبت نيال بشكل واضح. صحيح أنه يكرهها، لكنه في الوقت نفسه لا يحب أن يراها مع رجال آخرين. انطلقت اليسون في سرعة وهي تغادر البيت. وإذا كان تفكيرها صحيحاً، فهذا يعني أنها تملك

سلاحاً، وإن كان صغيراً، في معركتها ضد عدوها اللدود. إنها موجهة نحو جوني، ولا مانع عندها من استغلال ذلك ضد نيال الذي يملك قلباً من فولاذ حسبما تروي عنه نساء القرية. وطوال الطريق، كانت اليسون تتذكر محادثتها مع جيني، التي لا شك تلهف لسماع آخر التفاصيل عن المعركة الخاصة التي تدور في شيلبتج. وتمنت اليسون أن تحضر مع زوجها حفل التخييم في أراضي البيت قريباً.

ومن دون أي تخطيط، اعتادت اليسون على احضار اندريه إلى البيت كل يوم بعد انتهاء الدراسة. لم يعترض أحد على ذلك، فالأم وجيني تحبان الصغير وترتاحان إليه.

وقد قررت جيني، عندما رأته لأول مرة، أن الفتى بحاجة إلى تغذية ممتازة... وهذا ما دأبت عليه دائماً. واضطرت الأم واليسون للاعتراف بأن خطة جيني قد نجحت، إذ سرعان ما ظهر اللون الأحمر في خديه وأخذ الفتى يكتسب وزناً اضافياً.

وأدركت اليسون، يوماً بعد يوم، أنها تزداد تعلقاً بهذا الصبي. وكم كرهت نفسها لضعفها أمامه، خائفة أنها تدرك أن ساعة الفراق آتية لا ريب، وستكون قاسية للغاية. ومع ذلك تعمّق حبها لاندريه بقدر ما كان يزداد كرهها لأبيه.

وبرزت مشكلة جديدة في الأفق عندما حان موعد العطلة المدرسية التي تمتد على مدى ستة أسابيع كاملة. وهذا يعني أن اندريه سيكون وحيداً لأن أباه لا يستطيع ترك أشغاله للاهتمام به طيلة هذه الفترة. أفضت اليسون بمخاوفها هذه إلى جيني، مساء يوم الخميس الذي يسبق العطلة، في حين كان اندريه يلاعب الكلب راستي في الحديقة الخارجية.

سألتها جيني دون أن تتوقف عن اعداد السندويتشات:

«وما العمل يا ابنتي؟».

واصلت جيني تجهيز الشاي والسندويتشات للرجال العاملين في البيت، وهو الأمر الذي رتب منذ أن دعت اليسون جوني قبل أيام. فقد استمرت جيني في تزويدهم بالأكل والشاي عند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، وأصر نيال على دفع الثمن لأن هذه الخدمة توفر عليهم الكثير من الوقت والجهد. ولكن اليسون لم تكن مرتاحة للفكرة بعكس جيني، التي

سررت بها كثيراً. فقد كانت مديرة البيت تحب نيل وجوني للطريقة التي كانا يعاملانها بها. وتذكرت أليسون كيف أنها عادت في وقت متأخر ذات يوم ودخلت إلى المطبخ لتفاجأ بأن جيني لم تكن وحيدة. وسمعت صوت نيل يقول: «إنك طباخة ماهرة... لو أنك أصغر بعشرين سنة فقط» وسمعت أيضاً صوت جيني الضاحك: «هيا اذهب ودعك من هذه الألاعيب». عند هذا الحد دخلت أليسون، فاستدار الاثنان لمواجهتها. ظلت جيني مبتسمة، أما نيل فقد ماتت الضحكة على شفتيه وعاد التجهم على وجهه، ثم انحنى مبتسماً وقال:

«سأذهب الآن. شكراً لك يا جيني».

خرجت أليسون من ذكرياتها البعيدة لتجد أن جيني ما زالت تنتظر جواباً على سؤالها. فقالت:

«ماذا تستطيع أن تفعل؟ لو أن الأمر يعنيني فأنا على أتم الاستعداد لإبقائه هنا لكن...»

عضت أليسون على شفتها بحزن دون أن تستطيع إكمال جملتها.

ربتت جيني على كتفها بحنان قائلة:

«إنني أفهم وضعك يا صغيرتي. المسألة صعبة بالنسبة إليك، لكن لو افترضت أنا وأنت أن نحضره إلى هنا...»

قاطعتها بسرور:

«هل تفعلين حقاً؟».

هزت جيني رأسها بهدوء وقالت:

«سأفعل. لكن عليك ألا تتعلقي بأندرو إلى هذا الحد».

«لا ضرورة لتحذيري، فأنا مدركة لخطورة الوضع. كيف يمكن أن يحدث هذا يا جيني؟ كيف أكره الأب، بينما أنا أحب الابن، كيف؟».

أخفت أليسون رأسها بين يديها، لكن نظرات جيني الفاحصة ظلت تلاحقها بتمعن، ثم سألتها بهدوء:

«هل أنت متأكدة من شعورك؟».

سألتها باستغراب شديد:

«شعوري نحو من؟».

«هل صحيح أنك تكرهين نيل ماكيون؟ أقصد أن كراهيتك كلية

قاسية جداً...».

رفعت أليسون عينيها إلى جيني قائلة:

«إنه لا يمكنني احتماله معنوياً ولا أرتاح إليه وهذا شيء أنا متأكدة منه تماماً. لكن ماذا تقصدين بالضبط؟».

تشاغلت جيني بجدية في إعداد السندويشات، وقالت دون أن تنظر إلى أليسون:

«لا شيء، مجرد كلام من امرأة عجوز. فقط...».

ترددت قليلاً، فحثتها أليسون على إكمال حديثها بسرعة.

أضافت مديرة المنزل تقول:

«حسناً، لا أعتقد أن نيل يكرهك كما تحاولين تصوير الأمر بالنسبة إلي».

أظهرت أليسون علامات الدهشة البالغة، لكن جيني تابعت دون توقف:

«إنها الحقيقة. جاء في أحد الأيام لإرجاع أكواب الشاي وكنت أنت تلاعبين أندرو في الحديقة».

استعجلتها أليسون عندما لاحظت ترددها، فتابعت العجوز تقول:

«رأيته يتوجه إلى النافذة ويراقبكما بهدوء. ثم لمحت وجهه... بدا وكأنه فقد قسوته وصلابته، بل يمكنني القول إنه كان حنوناً ولطيفاً. ولا شك أنه جذاب جداً عندما يفقد صلابته المعهودة».

ردت أليسون بحزم:

«كان ينظر إلى أندرو أساساً».

«كلا، هذا ما اعتقدته في بادئ الأمر. لكنني عندما اقتربت منه تأكدت أنه ينظر إليك بالتحديد».

قالت أليسون بقسوة شديدة:

«إنك تعرفين موقفي من بعض، كشكل فقد الذاكرة. إنه يكرهني بقدر ما أكرهه. صدقيني يا جيني عندما أقول إن المشاعر متبادلة».

لكن شيئاً في داخلها كان يناقض صحة هذه الكلمات، لذلك عمدت جاهدة إلى إخفاء مشاعرها في أعماق عقلها وهي لا تكاد تصدقها: «لا أريد نظراته على الإطلاق، سواء كانت قاسية أو لطيفة».

انهت جيني اعداد السندويشات، ثم وضعتها في كيس من البلاستيك وهمّت بالتوجه الى البيت الكبير. لكن اليسون اوقفتها قائلة :

« سآخذ الشاي والسندويشات بنفسي ».

رفعت جيني حاجبيها دهشة، في حين تابعت اليسون كلامها ضاحكة :

« سأسلمها الى جوني أو أحد الآخرين كالمعتاد... انني ارتاح لجوني ».

وبدون أن تنتظر جواباً من جيني، حملت اليسون الحوائج وسارت باتجاه البيت. عندما دخلت الى القاعة الرئيسية، كان جوني قد نزل لتوه من الدور العلوي، فقال :

« كنت في طريقي الى الكوخ. هيا دعيني أحمل الاغراض عنك ».

ناولته معدات الشاي والسندويشات وهي تسأله :

« أين الاكواب؟ ».

نظر اليها مبتسماً وقال :

« في المطبخ... أعتقد أنها بحاجة للغسيل ».

ضحكت اليسون قائلة :

« حسناً، سأغسلها بنفسي ».

سارا معاً باتجاه المطبخ. وعندما انتهت من اعداد الاكواب قالت له :

« سأساعدك في حمل الشاي الى الفندق العلوي، فأنا أريد أن أرى ما تم انجازه حتى الآن ».

ابتسم جوني وهو يقول :

« اهلاً وسهلاً، وسأكون دليلك في الجولة ».

سألها جوني وهي تسكب الشاي :

« هل ستذهبين الى احتفالات القرية الأسبوع المقبل؟ ».

« بالتأكيد. وأنت يا جوني، هل ستذهب؟ ».

« طبعاً. ولا تنسي حفلة الرقص في نهاية السهرة ».

هزت رأسها بالنفي... ثم أدركت فجأة الى أين سيؤدي بها الحديث، لذلك غيرت الموضوع قائلة :

« أية ألعاب ستشترك فيها؟ ».

« قبل كل شيء سباق الجري. ما هي امكانياتك في هذه الرياضة؟ ».

ضحكت اليسون بصوت مرتفع وهي تقول :

« لا أبداً. ان عضلات قدمي باتت متعبة هذه الايام، لذلك افضل مشاهدة السباق على الاشتراك فيه ».

ابتسم دون أن يرفع عينيه عنها :

« كنت أمزح. ما رأيك في المشاركة بلعبة أخرى؟ ».

« ربما. انت تعرف أن عندي سبعة متسابقين صغار يشاركون في كل البطولات ».

« سيصبح لديك متسابق آخر. هذا اذا لم أكن مشاركاً في اللعبة نفسها... ».

« وعندما يصبح كل واحد منا وحده، فضلاً عن الرقص، هل تتركين لي رقصة « التويست »؟ ».

ابتسمت قائلة :

« اذا اردت ذلك ».

« اتمنى ذلك بشدة ».

حمل جوني أكواب الشاي والسندويشات، قائلاً :

« هيا بنا الآن، والا فسأضطر الى الحنث بوعدي ».

نظرت اليه باستغراب متسائلة :

« وعدك؟ ».

« وعدي لنفسي... بأن لا أعانقك دون دعوة مسبقة ».

كانت قد عرفت الذئب قبله، لذلك لم تستسلم لابتسامتها العريضة. أصبحت اليسون متأكدة الآن أن جوني لا يحتاج الى أية مناورة لاستعطاف قلب ماكيين اذا ما قررت اكتشاف حقيقة موقفه منها. لكن عليها أن تكون حذرة جداً اذا ما لعبت بهذه النيران... والا أحرقت اصابعها بنفسها.

٦ - الوحش

كان نيال يعمل مع الاخوة كاميرون في غرفة النوم الرئيسية في الدور العلوي عندما وصلت ليسون وجوني حاملين الشاي والساندويشات. وقد توجهت ليسون بما حل بالغرفة التي كانت واحداً من أكبر الغرف في البيت كله. كانت الغرفة فارغة من كل شيء، الأثاث وورق الجدران والسجاد واللوحات الفنية والستائر، بالاضافة الى جدار خشبي قطعها الى قسمين متساويين.

توقف الاخوة كاميرون عن العمل عندما دخلت ليسون وجوني، اما نيال [illegible] في العلية [illegible] حافز.

ومد نيال سلاماً مقتضباً الى ليسون أعقبه بكلمة شكر. وقبل أن تنطق ليسون بكلمة، تسلم جوني الحديث قائلاً:

«هل يمكنني أن آخذ ليسون في جولة داخلية، فهي راغبة في رؤية ما أنجز من عمل حتى الآن؟».

سار نيال الى الطاولة التي وضعت عليها المأكولات، ثم التفت الى ليسون قائلاً:

«طبعاً. لكن انتبها الى باب المطبخ فهو يحتاج الى تثبيت».

قال جوني:

«سنتبع نصيحتك. هيا بنا يا ليسون».

وبينما هما يغادران الغرفة، وضع جوني يده على ذراع ليسون لاصطحابها الطريق أمامها. فتساءلت ليسون بفرح معقول عن اذا كان نيال يراقب

المشهد.

صعدا السلم الخشبي ودخلا الى العلية الأولى. فعلت ليسون للاتساع الكبير الذي بدا عليه المكان خاصة بعد أن أزيل كل الأثاث منه، باستثناء الحصان الخشبي الذي أصبح ملكاً لأندريه، والذي يربض الآن تحت غطاء من القماش لحمايته من الغبار. التفتت الى جوني بعد لحظات قائلة:

«إنه يختلف كثيراً عما كان عليه في السابق».

هز رأسه مبتسماً وقال:

«هذا صحيح. انتظري حتى تري بقية الغرف. هيا بنا».

ظلت ليسون تتبع جوني في جولته الشاملة وهي تلاحظ التغيير الذي طرأ على كل الغرف، إلا أن دهشتها الكبيرة ظهرت عندما خرجا من العلية الرابعة التي تحولت الى حمام أنيق، ودخلا الى ما أصبح الآن مطبخاً حديثاً متكاملاً.

وفجأة ادركت ليسون أن العلية كلها باتت تشكل وحدة سكنية قائمة بذاتها. [illegible] التفتت الى جوني [illegible]:

«هل هذا هو المكان الذي سيسكن فيه أندريه وعائلته؟».

هز جوني رأسه وأجابها بهدوء:

«أجل، ألم تعرفي ذلك من قبل؟».

«لا... ظننت أنه سيترك ادارة الفندق الى شخص آخر».

«أبداً. سيتولى بنفسه ادارة الفندق. فهنا الدور مستقل تماماً. بعد ذلك سيحضر مربية تتولى الاشراف على أندريه، في حين يرعى هو الضيوف شخصياً. وأعتقد أنه سيختار لهذا الفندق اسماً مرموقاً».

لم تدر ليسون كيف فكرت بجيسي عندما جاء ذكر المربية. لكن جوني تابع يقول بعد تردد:

«وعلينا الآن أن ننتظر لنكتشف اذا ما كانت ادارته ناجحة أو فاشلة».

قالت بهدوء:

«يجب ألا يفشل ما دام الطريق سيشق قريباً... تماماً مثل الفندق».

نظر اليها مندهشاً:

«الطريق ليس مؤكداً بعد. انها مجرد شائعة لم تتحقق. وأنت تعرفين

ثم من الوقت سيمضي قبل التنفيذ، إذا ما كان الطريق مقرراً بالفعل».
تلفتت اليسون حولها وهي تقول:
«يبدو أنه لا يفكر كثيراً حتى ينفذ ما يقرره!».
أجابها ضاحكاً:
«إنها الحقيقة. ومع ذلك فلست تكرهينه بشدة. أليس كذلك؟».
«وهل الأمر واضح إلى هذا الحد؟».
مالت البسمة على شفتيه وهو يقول:
«لا. لكنني أرى حقاً ما حساس جداً في ما يتعلق بك. إني ارتاح اليه، رغم أنه ضربني من أجلك قبل تسع سنوات..».
نظرت اليه غاضبة وقالت:
«قلت لك ألا تذكر الموضوع أمامي أبداً».
أطلق جوني صفيراً ساخراً وهو يتراجع متظاهراً بالخوف:
«أنا آسف. لكنك تصبحين أجمل عندما يظهر غضبك».
ردت اليسون بهدوء:
«لست غاضبة أبداً».
ابتسم بلطف:
«طبعاً لا، فأنا لا أدخل في نقاش مع السيدات».
لم تستطع أن تكبت ضحكة عالية:
«يا لك من انسان لا سبيل لاصلاحه على الاطلاق».
أجابها بهدوء:
«لو أنني أعرف معنى عبارتك هذه لكنت غضبت... لذلك لن أسأل عن معناها. والآن هيا بنا لأريك ماذا فعلنا في الدور السفلي».
«سألحق بك بعد دقيقة».
كانت تريد القاء نظرة متفحصة على الخزائن والأدراج المصنوعة من الخشب المصقول.
قال لها وهو يغادر الغرفة:
«إذن سأشرب الشاي قبل أن يبرد. حاذري باب المطبخ!».
لم تكن اليسون تستمع الى جوني، بل كانت تتلمس الخزائن والأدراج المفروشة بعناية بالغة. وبعد أن تفقدتها كلها، لاحظت عدم وجود الشارة

تدل على مصدر الصناعة.
وتساءلت باهتمام عما إذا كان نيال صنعها بنفسه. فقد كان أبرز النجارين في القرية بما أثار حسد أهلها البلداء. أما اليسون فكانت معجبة، وإلى حد السحر، بالأدوات الخشبية الصغيرة التي كانت تبدعها يداه الرقيقتان آنذاك.
ألقت اليسون نظرة أخيرة على المطبخ وسارت باتجاه الباب وفجأة تذكرت تحذيرات نيال وجوني، لكن بعد فوات الأوان. أحست لحظة أن الباب غير ثابت وحاولت الابتعاد عن الطريق. لكن صرخة عالية انطلقت منها عندما انهار الباب باتجاهها فاضطرت الى التراجع... ثم وقعت على ظهرها وانسحب ثقله على قدميها.
استلقت على الأرض نصف مغمى عليها، بينما جاء من البعيد وقع أقدام مسرعة على السلم.
حاولت النهوض عن الأرض دون جدوى. وخلال لحظات كان وجه نيال بالقرب من وجهها لا وجه جوني... وبقدرة قادر ازاح الثقل الذي كان يربض على قدميها. منعها الألم من الرؤية، لكن بدا لها أن نيال هو الذي ركع الى جانبها قائلاً:
«اليسون، هل تسمعينني؟».
أغمضت عينيها بشدة، ثم أحست بذراعه القوية تلتف حول ظهرها لاسنادها. قالت:
«نعم... اني بخير».
استدار نحو جوني الواقف بقربه، وقال:
«جوني، أرجوك أن تحضر قطعة قماش مبللة جيداً بالماء».
أسرع جوني ملبياً قبل أن ينهي نيال كلامه. أما اليسون فقالت:
«لكنني لست...».
قاطعها بلطف:
«ظلي مستلقية. كيف وقع الحادث؟».
«طلبت من جوني أن يتركني لأتمعن في الأدراج والخزائن. لقد حذرني من الباب، لكنني لم أستمع اليه. أنا آسفة».
وفجأة انفجرت بالبكاء، رغم محاولتها التجلد أمام عدوها اللدود.

وبعد أن هدأت قليلاً، نظرت إلى قدميها فأرعبتها رؤية الدماء تغطي الساق حتى القدم.

أزاح نيال وجهها ناحيته وهو يقول:

«لا تنظري إلى قدمك، فالجرح ليس عميقاً كما تتصورين. لا شك أنك جرحت نفسك وأنت متراجعة! هل يمكنك الجلوس؟».

هزّت رأسها، بينما فكرها مشتت بين ملاحظة أن نيال ماكيون لم يكن الصخر القاسي الصلب بل هو لطيف وحنون الآن، وبين الشعور بالألم الذي اشتد وجعلها تتأوه بصوت عال.

عاد جوني حاملاً القماش المبلل، فطلب منه نيال أن يلف القطعة حول الجرح بانتظار نقلها إلى البيت. رفعها نيال قليلاً، فأحست بيده قوية حول خصرها... ثم أحست ببرودة الماء على الجرح فانتفضت بقوة. قال نيال مخاطباً جوني:

«اذهب وأخبر السيدة ماثلي وجيمي أني سأحضر اليسون بعد قليل... واطلب منهما أن يبعدا الفريق عن المكان».

سأله جوني:

«هل تحتاج إلى مساعدة؟».

«لا، سأتدبر الأمر. فقط دع السيدة ماثلي وجيمي تستعدان وسألحقك بعد دقيقة».

وخرج جوني بسرعة لتنفيذ ما طلب منه.

طلب نيال من اليسون أن تنهض قليلاً، وقال:

«سوف أربط قطعة القماش كي لا تسقط».

أخرج منديلاً من جيب سرواله وربط به قطعة القماش المبللة وهو يقول مبتسماً:

«لست طبيباً ماهراً».

ثم نظر إليها بلطف قائلاً:

«أنا آسف لهذا الحادث يا اليسون!».

هزّت رأسها محاولة حبس الدموع في عينيها:

«إنها غلطتي أنا، وهي نتيجة الإهمال. أرجوك أن لا تلوم نفسك أو جوني بسبب ذلك».

نهض واقفاً وقال:

«سأحملك إلى البيت. فقط استلقي بهدوء واتكئي إليّ إن استطعت على الطريق».

انحنى واضعاً يده اليمنى تحت ذراعيها ويده اليسرى تحت ركبتيها، ثم حملها بخفة وكأنه يرفع ابنه الصغير. وقال لها بهدوء:

«ضعي ذراعك حول عنقي. هل أنت مرتاحة؟».

أطاعته من دون تردد وهي تقول:

«أنا مرتاحة. شكراً لك».

شعرت اليسون أن الألفة التي جاءت مع الحادث قد انتهت. وإذا بها تتوتر بشدة وهي تدرك حقيقة ما يجري الآن. ثم سمعت صوته وقد ظهرت القسوة فيه:

«ارتاحي».

إذن، فقد لاحظ نيال التوتر أيضاً. حاولت جاهدة كي ترتاح، لكن وعداً قطعته على نفسها قبل مدة، ظل يسخر منها. فقد أقسمت بألا تدعه يلمسها... والذي يحدث الآن هو ذلك تماماً. تنفست اليسون بعمق محاولة السيطرة على أعصابها في هذه اللحظات. نزلا السلم بهدوء وجو من الصمت المتوتر يخيم عليهما. نظر إليها وهما يعبران القاعة الرئيسية متسائلاً:

«هل أنت على ما يرام؟».

ردت بالإيجاب دون أن يغيب عنها التوتر الشديد الذي سيطر على أعصابها وجسدها. فهو قريب جداً منها، وجهه الذي وصفته بأنه وجه قرصان لا يبعد كثيراً عن وجهها. حاولت أن تخفف من سرعة تنفسها من دون نجاح يذكر، وتمنت في سرّها أن لا يسمع دقات قلبها المتزايدة باستمرار. لم تكن قادرة على تحويل نظرها عنه... ولاحظت كم أن ذقنه صلبة، وانتبهت إلى شارب حديث بدأ ينمو بصورة ملحوظة. كان شعره أسود حالكاً، ولذلك أطلق عليه لقب نيال الأسود.

ارتجفت اليسون بدون إرادة عندما أصبحا خارج البيت. فقال لها نيال بلطف:

«ستكونين في الفراش بعد دقيقة. إنك بحاجة إلى شراب ساخن».

ولكنّها لم تجرؤ على القول أن الرجفة لم تكن بفعل البرد، بل بفعل الخوف. . . الخوف من هذا الانسان الغريب الذي عاد مجدداً الى حياتها، والذي يهددها في أكثر من مجال.

وجدت اليسون، عندما وصلت الى الكوخ، أن جسي شديدة القلق عليها فاضطرت الى التأكيد لها المرة تلو الأخرى بأنها على ما يرام، وأن قدمها مصابة بجرح طفيف فقط. أما نيل فقد تولى الاشراف على كل شيء، بعد أن شاهد نور منارة البيت المضيء.

وتخلّت اليسون عن فكرة الاعتراض، عندما واجهها نيل بتلك النظرة الحديدية البارزة التي اكتشفتها منه. الشيء الوحيد الذي لم يعترض عليه هو رفض اليسون السماح لجسي بالذهاب لاحضار أمها من غرفة الرسم. ابتسم لجسي وهو يقول:

« اليسون محقة في عدم ضرورة مجيء السيدة ماكاي، لكن أرجوك أن تعدّي لنا كوباً من الشاي ».

ثم انحنى وأزال قطعة القماش التي أصبحت مبللة بالدم.

كانت اليسون مستلقية على الفراش بعد أن وضعوا تحتها منشفة عريضة لتمنع تلوث السرير بالدم. لاحظت انه تردد قليلاً فسألته:

« ماذا في الأمر؟ ».

أجاب مشيراً إلى ساقيها:

« الجوارب تعيقني عن معالجة الجرح ».

قالت:

« انها جوارب طويلة، ما العمل؟ ».

وانتظرت اليسون أن يترك الغرفة حتى تخلع جواربها. وما هي الا لحظات حتى حدث ما لم يكن في الحسبان. لقد أحست بكفيه تمسكان الجوارب وتنزلانها الى أسفل بنعومة. فوجئت اليسون بالحركة فانتصبت واقفة وقد تضرّج خداها باللون الأحمر. نقلت نظرها بين وجهه وبين جواربها التي استقرت عند قدميها وقالت:

« كيف تجرؤ على ذلك... أنت... ».

حدّق نيل في عينيها دون أن يزيل البسمة عن شفتيه:

« ها أنت تهدديني من جديد؟ سبق لي أن أخبرتك كيف أرد على

التهديدات والتحذيرات ».

ثم انحنى على الجرح يدلكه بعناية بالغة، في حين عادت اليسون الى الاستلقاء وصدرها يخفق بالغضب المكتوم. ثم استدارت عندما سمعت وقع قدمي جسي التي قالت على الفور:

« هل اتصل بالطبيب؟ ».

قال لها ويداه تواصلان تنظيف الجرح:

« لا ضرورة للطبيب يا جسي. فالجرح سطحي ويكفي استعمال المطهرات ».

أنهى احكام الشريط اللاصق، ففتحت اليسون عينيها لتجد جسي واقفة فوق رأسها وعلامات القلق والاهتمام بادية على وجهها. ابتسمت اليسون قائلة:

« صدقيني يا جسي، أنا على ما يرام ».

وضعت جسي كوب الشاي على الطاولة قرب السرير قائلة:

« هيا اشربي إذن ».

وكوّمت وسادتين خلف ظهرها، ثم التفتت الى نيل قائلة:

« كوب الشاي الخاص بك في المطبخ، والعشاء ينتظرك هناك أيضاً ».

حمل نيل وعاء الماء والمناشف الملوثة وسار باتجاه الباب قائلاً:

« سأغسل يدي أولاً، ثم أذهب الى المطبخ ».

وما أن غادر الغرفة حتى وجهت جسي نظرة ذات مغزى الى اليسون وهمهمت قائلة:

« لقد شاهدت أعداء كثيرين في حياتي، لكن هذا العدو مختلف تماماً ».

وللحظة اعتقدت اليسون أن جسي رأته وهو ينزع جواربها، لذلك قاطعتها:

« ماذا تقصدين؟ ».

« أنت تعرفين تماماً. كان شديد القلق عليك، ومع ذلك تقولين... ».

توقفت عن الكلام عندما سمعته يغادر الحمّام، ثم تابعت تقول:

« الأفضل أن أذهب إلى المطبخ لرعايته. وفي هذه الأثناء عليك شرب الشاي ساخناً ».

غادرت جسي الغرفة بسرعة، وظلت اليسون في فراشها تتذكر أحداث

اليوم بكل تفاصيلها.

بعد فترة قصيرة، اتصلت اليسون هاتفياً بصديقتها ميغ. ولكنها لم تستطع أن تكشف لها كل مكنونات صدرها لأن الهاتف موجود في القاعة الرئيسية بالقرب من المكان الذي تسير فيه أمها وجيسي. هدفها الوحيد من الاتصال كان أن تلح على ميغ في المجيء لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معاً. لقد حضرت ميغ السنة الماضية في موسم الاحتفالات وأمضت وقتاً ممتعاً مع اليسون، بينما ظل الصغيران مع السيدة ماكاي في البيت. ولم تمانع أمها هذه المرة أيضاً في رحلة الصغيرين، بل رحبت بذلك قائلة ان المشاركة في الاحتفالات ستخرج اليسون من القلق الذي تعيش فيه الى حد ما.

سرت ميغ بالدعوة كثيراً، وقالت ان زوجها بيل الموجود في الخارج الآن لن يمانع أبداً. ثم أضافت قائلة:

« وماذا عن الرجل المتوحش ؟ »

ردت اليسون:

« حسناً ان الكلام صعب . . . »

قاطعتها ميغ:

« أنت غير قادرة على التكلم بحرية الآن ؟ ».

« أجل. لقد انتقلنا الى الكوخ مؤخراً، وهو أصغر كثيراً من البيت ».

« فهمتك تماماً، وعلى كل سأتصل بك في وقت لاحق. هل ستذهبين الى حفلة الرقص خلال الاحتفالات ؟ »

« نعم ».

« رائع. فانا أحب الجو الاجتماعي الموجود في قاعة البلدية. أودعك الآن، وسأتصل فور عودة بيل الى البيت ».

وضعت اليسون سماعة الهاتف وهي تفكر فيما ستراه ميغ في جوني الذي سيكون معها في السهرة. ثم حدقت في قدمها المجروحة متسائلة عما إذا كان الجرح سيزول قبل نهاية الأسبوع المقبل.

رنّ جرس الهاتف بينما كانت اليسون في الفراش. رفعت السماعة بسرعة متوقعة صوت ميغ، لكنها فوجئت بجوني يقول:

« آسف لاتصالي في هذا الوقت المتأخر، لكنني أردت الاطمئنان عنك ».

« شكراً على الاتصال يا جوني. أنا بخير الآن ».

« عظيم. أنا متأسف يا اليسون. لم يكن من المناسب أن أتركك وحيدة في المطبخ ».

« ما هذا الكلام. كان إهمالاً مني أن لا أستمع إليك. لذلك لا ضرورة لهذا الأسف ».

« حسناً، سررت جداً لأنك على ما يرام. هل تريدينني أن أحضر صباحاً لأخذك الى المدرسة ؟ »

أجابت اليسون قائلة:

« هذا لطف منك، لكنني في الحقيقة . . . »

« اني أصر على ذلك، سأمر عليك عند الساعة الثامنة الا الربع. تصبحين على خير يا اليسون ».

أعاد جوني السماعة بدون أن يترك لها مجال الاعتراض. وأحست اليسون بالارتياح لمبادرته اللطيفة التي لا يمكن أن تخطر على بال انسان. لكنها كانت مخطئة في اعتقادها هذا. حين أخبرت أمها عن الاتصال الذي أجراه جوني معها قبل دقائق، فاستغربت رد فعل السيدة ماكاي المدهش الذي قالت:

« آه يا الهي ».

سألتها اليسون بدهشة:

« ماذا ؟ لا أعتقد أن هناك شيئاً ».

قاطعتها الأم:

« لا أبداً. لكن نيل جاء عندما كنت نائمة، وقد سحب [illegible] من غرفة الرسم . . . وعرض أن يقلك بسيارته الى المدرسة صباحاً. قلت له أن لا ضرورة لذلك لأنك على ما يرام. لم أكن أتمنى أن لا يرى جوني وهو يوصلك، وإلا اعتبر الأمر إهانة له ».

ضحكت اليسون بهدوء:

« هل هذا كل شيء ؟ ليس هناك مانع في أن يرانا معاً . . . لا مانع على الاطلاق ».

وتساءلت اليسون عندما أطفأت النور عما إذا كانت تحاول اقناع أمها أو اقناع نفسها. لكن رنين الهاتف قطع عليها حبل تساؤلاتها. كانت ميغ،

التي أكدت لها أن نيل وافق على فكرة التخييم، وأن العائلة كلها ستأتي يوم الخميس لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في حدائق البيت الشاسعة.

وفي تلك الليلة، ذهبت اليسون إلى النوم وهي أكثر سعادة من أي وقت مضى.

مضى آخر يوم دراسي قبل العطلة دون أي عمل يذكر. فقد انشغل الأولاد، الذين امتلأت أفكارهم ومشاعرهم بعطلة الأسابيع الستة، في ألعاب مسلية وهم غير قادرين على استيعاب الدروس. لذلك جلست في مقعدها وراحت تراقبهم بمرح. وفي خضم لعب الأطفال وفرحهم عادت بها ذاكرتها إلى الساعة التاسعة إلا ربع هذا الصباح عندما وصل جوني بسيارته إلى الكوخ. وقد وعدها بأنه سيأتي عند الساعة الثانية عشرة إلى المدرسة ليأخذها إلى الغداء، وليعيدها إلى المدرسة بعد ذلك. كان جوني يقود سيارة قديمة، لكن السيارة التي شاهدتها اليسون الآن كانت سيارة زرقاء جديدة . . . إنها سيارة نيل ماكيون التي توقفت في باحة المدرسة مثيرة موجة من الغبار والحصى الصغيرة.

التفتت اليسون إلى الأطفال قائلة:

« إلى الغداء أيها الأولاد، أما أنت يا اندريه فإن اباك أتى لأخذك ».

فتح الباب بهدوء بينما كانت اليسون تتجه إلى طاولتها لتأخذ حقيبة يدها. نظرت من فوق كتفها وكأنها فوجئت بوجوده. قالت بلطف:

« أهلاً، لقد جئت من أجل اندريه؟ ».

أجابها قائلاً:

« ومن أجلك أيضاً ».

« لكن جوني قال . . . ».

قاطعها بهدوء:

« إنه مشغول بطلاء الجدران وبعض الأبواب ». ثم التفت إلى ابنه قائلاً:

« مرحباً يا اندريه، هل كنت تلميذاً جيداً؟ ».

« نعم يا أبي ».

غابت أصواتهما وهما يغادران الغرفة تاركين اليسون تجمع كتبها وحاجياتها، لاحظت أنه لا وجود للدفء والحنان في حديثهما، وكأنهما غريبان التقيا مؤخراً. تساءلت اليسون بقلق: كيف يمكن أن يكون نيل قاسياً لهذه

هذا الصغير؟ وتذكرت فجأة أن نيل لم يستعمل كلمة ابني عند الحديث عن اندريه أمام جوني والسيدة ماكاي، بل كان يكتفي بكلمتي اندريه والصغير. وفي طريقهما إلى الخارج تذكرت شيئاً آخر وهو أن نيل لم يتحدث إلا نادراً عن زوجته، وكان عندما يستعمل عبارة - أم اندريه - في اشارته اليها.

سألها نيل وهي تدخل إلى السيارة:

« هل انت قادرة على الدخول بمفردك؟ ».

« نعم، شكراً لك ».

كانت تتمنى أن تذهب سيراً إلى البيت. لكن قدمها ما زالت تؤلمها، وهي لا تريد الانتكاس تمهيداً لزيارة ميغ للقبلة والاحتفالات التي ستقام خلال أيام.

سارت بهما السيارة مسرعة محتفظة من غير أن يتكلما. بل اكتفيا بالحديث إلى اندريه الذي لم يكن مدركاً للتوتر المحيط به. ذلك أن اليسون لم تكن قادرة على التحدث إلى الرجل المخيف الذي يجلس إلى جانبها ملقياً يديه على مقود السيارة: اليدان الثقال . . . فعضت على أفكارها عامدة ومصممة على عدم التفكير فيه. ويبدو أن حركتها الحازمة لفتت انتباهه فقال:

« هل قدمك تؤلمك؟ ».

أجابت بالإيجاب . . . لكنها ندمت على الفور لكذبتها هذه. وزادها سؤاله كرهاً له، خاصة وهي تلاحظ علاقته الباردة بابنه الذي هو من لحمه ودمه. وكانت تود أن تصرخ بمشاعرها بصوت عال لكنها لم تجرؤ، لأن هناك أشياء يجب أن لا تقال.

لم يتوقف أمام البيت الكبير كما توقعت اليسون، بل عبر الممر الضيق متوجهاً نحو الكوخ ثم قال لاندريه:

« جيني عرضت أن تتناول الغداء معهم، فهل تريد أن تتغدى معي في البيت الكبير؟ ».

غادر نيل السيارة دون أن ينتظر جواباً من اندريه. فأسرعت اليسون خارجة قاطعة الطريق على المساعدة التي يمكن أن يقدمها. وعندما أصبح الثلاثة في الخارج وضع الصغير يده في يد اليسون قائلاً:

« وأفضل أن أتناول الغداء مع الآنسة ».

لاحظت اليسون أن عضلات فك بيل تقلصت غضباً ولكن بشكل غير واضح.

فأرادت أن تقول له إنها لا تنوي سرقة اندريه منه... لكنها لم تفعل.

سارت اليسون واندريه يداً بيد وخلفهما بيل عن قرب، سمعتهم جيني فنادت من الداخل :

« في المطبخ ». وعندما شاهدت بيل حوّلت الحديث إليه : لقد رجعت مبكراً ؟ حسناً يمكنك أخذ الغداء معك إلى البيت. ثم أضافت قائلة لأليسون : هيا اجلسي وأريحي قدمك، سأكون جاهزة بعد لحظات ».

تبعت اليسون جيني إلى المطبخ، وأخذت مقعدها إلى المائدة. أما بيل فقد ظل واقفاً في الباب يراقب اندريه الذي احتل المقعد المجاور لأليسون. فكرت اليسون وهي تنظر إليه أنه مسؤول عن العلاقة غير الواضحة مع ابنه. ولاحظت أن هناك نظرة غاضبة في عينيه الآن غير تلك التي تعودتها منه. لكن اليسون عادت إلى وعيها عندما سلمته جيني الطعام.

فالتفت إلى اليسون قائلاً :

« سأعود عند الساعة الواحدة ».

وغادر المطبخ بسرعة، قبل أن تتمكن اليسون من شكره.

وهكذا بدأت العطلة. أبلغت جيني اليسون أن اندريه سيأتي كل يوم إلى المزرعة في الوقت الذي يعمل فيه الأب في البيت. خفق قلب اليسون فرحاً وسألتها :

« كيف طلبت منه ذلك ؟ ».

ابتسمت جيني بسرور وردت :

« أثرت الموضوع مباشرة. قلت له أن عليه التفكير في ابنه خلال العطلة، وهل إذا كان يرغب أن أهتم به. وسألني إذا كان اندريه سيسبب لي المتاعب، لأنه ينوي تركه معه في البيت. فقلت له أن ذلك يعتبر جريمة، وأشرت إلى أن أصدقاء سيزوروننا هذا الأسبوع من بينهم أطفال وهذا ما سيسلي اندريه ».

توقفت جيني للحظات ثم تابعت :

« صدقاً أصر على أن يدفع لي مقابل ذلك، لكني أخبرته أنك

ستساعدينني في الاهتمام باندريه، وأنك لا يمكن أن تقبلي أية أموال... قال لي إنني محقة في اعتقادي هذا، وإنه لاحظ التغير في شخصية اندريه بفضل تدخلك واهتمامك به ».

وأخيراً وجهت نظرة حادة إلى اليسون قائلة :

« وهكذا ترين أنه يشعر بالتقدير لما قمت به ».

ابتسمت اليسون قائلة :

« يا لها من طريقة رائعة للإعراب عن التقدير ».

وفجأة دخل اندريه من الحديقة حاملاً باقة من الزهور والأعشاب قدمها إلى اليسون ثم غادر مسرعاً. وقد أنهى هذا المشهد غير المتوقع إلى قطع الحديث عن بيل ماكين.

اليوم بدأت العطلة فعلاً. سيكون اندريه معهم لعدة أسابيع، وبعد أيام سينضم إليهم مع بيل... لقد أحست اليسون بأن الحياة ستكون أفضل.

استيقظت اليسون صباح الخميس وهي تشعر بالنشاط والقوة. كانت قدمها قد تحسنت بشكل ملحوظ، ولم يعد يظهر من الجرح سوى خدش غير مرئي. إنها تنتظر احتفالات يوم السبت على أحر من الجمر، وخاصة حفلة الرقص في الليلة. وخلال الأيام القليلة الماضية كان بيل أو أحد الآخرين كالمعتاد يحضر لأخذ الطعام أو الشاي، وليس جون... ولكن اليسون لم تفكر في الأمر كثيراً. وبعد ظهر يوم الخميس قررت أن تحمل الشاي بنفسها إلى البيت الكبير. كانت قد ارتدت ثوباً برتقالي اللون يناسبها تماماً استعداداً لوصول ضيوفها في وقت لاحق بحيث بدت جميلة جداً لكنها لم تكن تدري ذلك.

عندما اعترضت جيني على طلبها، قالت لها اليسون :

« قدمي تحسنت، ولا أحتاج إلى بعض التمرين ».

ومن دون أن تنتظر جواباً، حملت الشاي وسارت مسرعة... ولم تر طبعاً ابتسامة جيني ذات المعاني الكثيرة.

دخلت إلى البيت الكبير وقلبها يخفق بسرعة غير معتادة. سمعت أصواتاً من الدور العلوي فصرخت بصوت عال :

« الشاي جاهز ».

لم تتوقع أن يكون نيال أول النازلين. عندما شاهدها توقف ثم تابع سيره. قالت له بسرعة :

« لست متأكدة إذا كانت أكواب الشاي في المطبخ أم في الدور العلوي ».

« إنها في المطبخ ».

وصل نيال إلى جانبها بدون أن يرفع عينيه عنها، بل راح يتفحصها بشعور شا انتهى بالاحراج الشديد. أحست أنه يحللها جزءاً جزءاً ثم يجمعها وينتظر النتيجة النهائية. وأخيراً مدّ يده لتناول صينية الشاي منها.

استدارت اليسون نحو المطبخ وهي تحس بنظراته تلاحق كل خطوة من خطواتها. حاولت أن تتصرف بشكل طبيعي، لكنها عجزت، وأخيراً قالت لنفسها : لماذا أهتم بنظراته هكذا؟ دخلت إلى المطبخ وعمدت إلى غسل الأكواب، ثم نقلتها إلى الطاولة قائلة :

« هذه الأكواب. أعتقد أنك تستطيع حملها إلى الأعلى. سأرحل الآن ».

شعرت برغبة عارمة في ضربه، وفي البكاء . . . وفي الهرب بسرعة. وأدركت بأنه يحس بكل ما تفكر به، وذلك من خلال الابتسامة الخفيفة المرتسمة على شفتيه.

وفجأة قال لها بنعومة :

« هل تريدينني أن أرحل وراء جوني لتساعدك في سكب الشاي؟ ».

واستطاعت الرد بصعوبة :

« أعتقد أنك لا تستطيع الاستفادة من عمله قليلاً أليس كذلك؟ ».

اتسعت ابتسامته وهو يقول :

« ليس بالضروري، ولكنني متأكد أنك لا ترغبين اضاعة حياة الفستان على أنا وحدي! ».

مرت اليسون إلى جانبه دون أن تجيب، محاولة عدم الاقتراب منه قدر الإمكان. فهي لا تريد الدخول في نقاش مع شخص تدرك تماماً أنها لن تربح معه، بل ستفقد أعصابها فقط. وقبل أن تصل إلى الباب، كان قد وضع ذراعه أمامها قائلاً :

« وما الأمر يا اليسون؟ ».

أجابت بجفاء :

« لم أسمح لك بأن تناديني باسمي الأول. والآن هل تفسح لي الطريق رجاء ».

ابتسم بسخرية دون أن يسحب ذراعه من أمامها :

« المعذرة يا آنسة ماكاي، كانت زلة لسان. هل قلت شيئاً آخر أثار غضبك؟ ».

ردّت بغضب :

« كل شيء فيك يثير غضبي، ولكنني سأكتفي من الآن فصاعداً بأن أهتم بابنتك فقط دون أن أحضر لكم الشاي والطعام ».

وأدركت على الفور أنها أصابت وتراً حساساً في نفسه. لم يسحب يده من أمامها قائلاً :

« أنا متأسف ».

ثم استدار عائداً إلى الطاولة. ترددت اليسون للحظات قبل أن تغادر المطبخ عائدة إلى الكوخ. إنه مسؤول عن هذا النقاش، لكنها ندمت للكلمات القاسية الأخيرة التي قالتها. وحاولت اقناع نفسها بأن لا أهمية لذلك، ومع ذلك كانت تحس أنها جرحته في الصميم. التفتت نحوه إلى المطبخ قبل أن تبتعد. كان نيال مسمراً قرب الطاولة لا يأتي بحركة. لقد أخطأت تماماً في تصرفها، فهو بالتأكيد يشعر ويحس أيضاً.

سباد الطقس أعاد إلى ذهن اليسون ذكريات الأيام الخوالي. كانت هي ومع في غرفة الجلوس وحيدتين تحتسيان الشوكولا الساخنة بعد أن أوى نيال والطفلان إلى الفراش في الخيمة المنصوبة في الخارج. ومع أن اليسون ألحت على بقائهم داخل المنزل، إلا أن مع أصرّت، ذلك أن الخيمة مجهزة أحسن تجهيز لاستيعاب الجميع.

كان الليل قد انتصف، لكن الصديقتين تجاوزتا نعسهما ونعاسهما واستمرتا في الحديث الذي لا ينتهي. وعندما وصلت اليسون في سردها إلى الكلمات الأخيرة القاسية التي وجهتها إلى نيال في المطبخ، عقدت مع شفتيها متسائلة :

« هل غضب لتلك الكلمات؟ »

«كلا، ولكم تمنيت أن يغضب فعلاً فقد اعتمدت على ذلك. فقط استدار مبتعداً. أعرف أنني أؤذيه بعمق، وهذا ما يخيفني. وعندما جاء لأخذ اندريه آخر النهار، هربت من الطريق. أتعرف طفولي سخيف على ما أعتقد؟».

ابتسمت ميغ وهي تقول:

«أعتقد أنه يتحمل جزءاً من المسؤولية. والآن دعيني منه. أريد أن أعرف المزيد عن جوني اللطيف الذي يبدو أنه...».

فهمت اليسون ما قصدته صديقتها، فقاطعتها مبتسمة:

«أجل، إنه شاب لطيف. ستتعرفين إليه يوم السبت، إذا لم يكن قبل. آه كم أنا سعيدة لوجودك هنا يا ميغ، والطفلان يمكن أن يلعبا مع اندريه وأعتقد أنك ستحبينه أيضاً، فهو طفل رائع».

نظرت ميغ إلى صديقتها وعلى وجهها تعبير أدركته اليسون على الفور قائلة:

«حسناً، لا تقوليها. إياك أن تحدثيني به كثيراً... فأنا لن أتعلق».

ثم ألقت نظرة خاطفة على ساعة يدها، وهبت واقفة:

«يا إلهي، إنها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. أعتقد أن بيل سيقتلك خارج الغرفة إذا ما تأخرت هكذا كل يوم».

وأنهت الصديقتان السهرة العارمة بضحكات عالية، ثم توجهت كل منهما إلى فراشها مسرورة.

عندما جاء اندريه صباح اليوم التالي، كان التوأمان يلعبان الكرة مع والدهما في الحديقة، في حين كانت ميغ واليسون وجسي في الداخل. أما نيال الذي أوصل ابنه، فقد غادر المكان على الفور.

أشارت جسي قائلة:

«انظري إلى الأولاد».

كان الصغيران اللذان لم يتجاوزا الثالثة قد اقتربا من اندريه للتعرف عليه، في حين وقف الأب يراقب المشهد من بعيد.

همست ميغ قائلة:

«إنه ليس أكبر من ابني في كل حال».

أجابت اليسون بحنو:

«لقد أصبح في هذا الحجم لأن جسي تطعمه بشكل جيد».

التفتت اليسون مبتسمة إلى جسي التي كانت منشغلة في إعداد الفطور للجميع وما تميز جسي في هذا المجال أنها تستطيع التأقلم مع كل الظروف ولقد رفضت دائماً عرض اليسون تقديم يد المساعدة في المطبخ، لأنها تفضل العمل منفردة، وتستمتع بالنتائج التي تكون مرضية في كل الأوقات. إلا أنها سمحت للصبية بالتسوق من القرية. لذلك تركت ميغ واليسون الأولاد في عهدة بيل، وجسي في المطبخ والسيدة ماكاي في غرفة الرسم في البيت الكبير. كانت السيدة ماكاي تتغيب كثيراً عن الكوخ ولا تعود إليه إلا مساء، بعد أن تكون قد أمضت نهارها كله في العمل إذ يظهر أن نيال أطلق يدها في الديكور والتصميم بحيث حلّت فيها شخصية جديدة تماماً تعرف ما تريد وتعمل جاهدة لتحقيق الأفضل. ومع أن اليسون وجدت بها التغيير، إلا أنها كانت تشعر في أعماقها بأن نيال يحاول سرقة كل شيء منها. ولم تكن قادرة على البوح بهذا الشعور الدفين حتى لأقرب صديقاتها. وظل السؤال الملح: ماذا سيشتري بعد؟ ومن أين يحصل على الأموال التي قلبت حياتها رأساً على عقب؟

في ذلك المساء، توجهت اليسون وميغ وبيل إلى مقهى القرية لتمضية بعض الوقت هناك، بعد أن استسلم التوأمان إلى النوم في غرفة اليسون. وهناك التقوا جوني الذي توجه إليهم مبتسماً فور مشاهدتهم. قدمته اليسون إلى بيل وميغ التي راحت تتأمله بتمعن وكأنها تدرس كل تفاصيله استعداداً لتقديم تقرير مفصل عنه إلى اليسون بعد عودتهم إلى البيت.

بعد التعارف، جلس الأربعة في أعمق الزوايا الهادئة. وسرعان ما غرق جوني وبيل في حديث لا ينتهي عن كرة القدم والسيارات، بينما تحادثت اليسون وميغ في حوار ممتع.

وفجأة تغير الحديث، وتناول الرجلان قصة البيت الكبير. وبدا أن بيل أبدى اهتماماً ملحوظاً بما يحمله جوني، فقد عمد الأخير إلى ورقة وقلم لرسم المخططات والتصميمات التي تعد للبيت. هز بيل رأسه وأطلق صفيراً طويلاً عندما أعلمه جوني عن الشقة الثالثة بالطابق العلوي للبيت، وقال:

«لا شك أن الشقة وحدها ستكلف مبلغاً كبيراً».

ردّ جوني:

«إنه يملك الأموال».

ثم التفت إلى اليسون مبتسماً:

«أنا شخصياً لا أمانع في حصة بتلك النجم، فهل تمانعين يا اليسون؟».

رددت اليسون كلامه باستغراب شديد:

«منجم؟ أي منجم؟».

نظر إليها باستغراب أشد:

«هل تقصدين أنك لم تسمعي عن المنجم؟ إنها إحدى القصص التي لا يمكن تصديقها... مع أنها حقيقية تماماً».

وعندما لاحظ الاهتمام على وجوه الثلاثة، ضحك قائلاً:

«الأفضل أن أخبركم القصة بالتفاصيل. هل أنتم مرتاحون؟ حسناً. فشيئاً، لم أحظ في حياتي بمثل هذا الجمهور المهتم».

قاطعته اليسون بنفاد صبر:

«جوني؟».

«حقاً. القصة أن نيال وشقيقه وبحارين آخرين أمضوا قبل سنوات، أحد أيام الصيف في أحد مقاهي الريو. وهناك التقوا رجلاً عجوزاً حدثهم عن منجم يملكه في أدغال البرازيل وقال لهم إن ضائقة مالية حلت به مما دفعه إلى عرضه للبيع.

قد يبدو حديث العجوز مختلقاً، لكن نيال والثلاثة الآخرين كانوا مليئين بالمال بعد رحلة بحرية طويلة لذلك اشتروا المنجم بسعر بخس جداً. حوالي مئتي جنيه استرليني تقريباً. وبالمقابل أعطاهم العجوز عدة وثائق ووقع لهم إيصالاً غير شرعي طبعاً وغادر المكان مسرعاً بحجة عمل عاجل يتطلب وجوده. ولا داعي للقول إنهم اكتشفوا الخدعة في اليوم التالي عندما راجعوا الوثائق في أحد مراكز الشرطة».

تمهل قليلاً لاحتساء رشفة من فنجان القهوة ثم تابع:

«وفي مركز الشرطة أخبروهم أن المنجم حقيقي، لكنه مغلق منذ سنوات ولا يفيد على الإطلاق».

أحست اليسون من الابتسامة الخبيثة التي علت وجه جوني وهو ينظر إليهم، أن شيئاً غير متوقع حدث بعد ذلك. وحثته متلهفة:

«وماذا بعد؟».

«ظل نيال محتفظاً بالأوراق لمجرد الذكرى. وفجأة، قبل ثلاث سنوات عثر عمال منجم آخر على عروق حديدية جديدة في الأرض... وبين ليلة وضحاها أصبح منجم نيال لا يقدر بثمن. وقد بحث أصحاب المنجم الأول عن أصحاب المنجم الثاني لشرائه منهم. وبالفعل باع الشركاء الأربعة المنجم بمبلغ مذهل لم يكشف عن قيمته بعد، وقسموه فيما بينهم».

ثم توقف عن الكلام وراح يتأمل الوجوه المندهشة أمامه، ثم قال:

«أعرف أنها قصة خيالية... لكنها حدثت فعلاً».

تنفست اليسون بعمق وقالت:

«الآن عرفنا من أين له الثراء».

وأدركت اليسون أن الشائعات والتوقعات المختلفة التي انتشرت في القرية لم تكن شيئاً بالمقارنة مع الحقيقة. وبسبب الرجل العجوز في ذلك المقهى المجهول تمكن نيال ماكيين من الاستيلاء على البيت. ووجدت نفسها تتساءل مجدداً عن زوجته، فلا شك أنه كان متزوجاً ورزق بالذرية قبل أن تهبط عليه الثروة الفاحشة... ومع ذلك كان لا يزال يعمل في البحرية التجارية. وأحست أن هناك شيئاً غير معقول في هذا المجال، لكنها لن تعرفه أبداً. واللافت للنظر أن تدريه لم يشر مطلقاً إلى حياته السابقة، وهي لن تسأله مهما كان الثمن. وأخيراً أنهى الجميع قهوتهم وتواعدوا على اللقاء ليلة الاحتفالات في اليوم التالي.

كانت الألعاب تجري في حدائق مكشوفة لا تبعد كثيراً عن مركز القرية، وقد اعتاد الناس المجيء إلى الاحتفالات للمشاركة في الألعاب أو إلى لقاء الأصدقاء القدامى، أو لمجرد قضاء أمسية ممتعة من المغامرات والأحاديث الشيقة.

وصلت اليسون وضيوفها إلى ساحة الاحتفالات، وكان التوأمان أسرع في الركض إلى الداخل وهما يتراقصان ويتضاحكان بسرور. وتساءلت اليسون عما إذا كان الصغيران سيجدان تدريه ونيال، خاصة أن هذا الأخير لم يأت صباحاً إلى البيت الكبير مع أن سيارته كانت متوقفة أمام بيت أبيه عندما مرت قبل قليل.

ازدحمت الساحة بالسيارات والشاحنات والدراجات النارية والهوائية، وانشغلت اليسون برد التحية لكل الذين تعرفهم. في حين ظلت مع تلح

عليها بالقول:
«لا تنسي أن تدليني على الوحش عندما يظهر».
«لن أنسى، وأعتقد أنك ستعرفينه من خلال وصفي له».
«وصفك جعله يبدو كقرصان بلحية سوداء كثيفة. وأنا أتوقع رؤية رجل بربطة على إحدى عينيه ويسير على قدم من خشب».
قاطعتها أليسون ضاحكة:
«لا تبالغي في تعليقك، فقط استعملي بعض الخيال».
ثم التفتت إليها بلطف قائلة:
«آه كم أنا سعيدة لوجودك معي يا ميغ. لو تتصورين كيف يكون الأمر من دون وجود شخص تثقين به وتفتحين له قلبك. لقد تحولت أمي وجيمي إلى جانبه. صحيح أني سعيدة للتغيير الذي طرأ على أمي، لكنها أصبحت...».
توقفت أليسون وكأنها تبحث عن التعبير المناسب، فأمسكتها ميغ من ذراعها بحنان قائلة:
«[illegible] أليسون، وصدقيني [illegible] [illegible] [illegible]».
والتفتت أليسون [illegible]:
«إنه غير فعلاً، وإذا تجرأت على القول بأنه إنسان جذاب فسأحطمك بيدي الاثنتين».
انفجرت أليسون وميغ بالضحك وانضمتا إلى حوالي مئة شخص ليسيروا الأول في الداخل، بينما انتشرت ما [illegible] من كل حدب وصوب. كان الحضور موزعين في الحقل الشاسع يراقبون الحلبات المختلفة التي ستجري عليها الألعاب الرياضية التي ينتظرها الجميع.
أشارت أليسون إلى مجموعة من الدراجات الهوائية القديمة وقالت مبتسمة:
«قد أجرب حظي في سباق الدراجات».
كانت جيمي والسيدة ماكاي قد أكدتا أنهما ستلحقان بالجميع بعد الانتهاء من بعض الأعمال العاجلة. تلفتت أليسون تبحث عنهما،

وتساءلت في سرها عما إذا كانت أمها قد قررت التأخر عامدة كي تأتي برفقة نيل مؤكدة للقرية كلها أن النزاع قد مات إلى الأبد.
وهكذا أمضت أليسون وقتها في حديث متشعب مع ميغ بينما كانت عيناها مركزتين مرة على المتسابقين اللاعبين في الحلبة، ومرة أخرى على الطريق بانتظار نيل، جيمي والسيدة ماكاي.
وأخيراً لمحته قرب المدخل الرئيسي مع أندريه. وبحركة لا شعورية هزت ذراع ميغ هامسة:
«إنه هناك».
استدارت ميغ بهدوء كي لا تلفت انتباه أحد وألقت نظرة خاطفة ثم قالت:
«إني لا أصدق عيني».
سألتها باستغراب:
«لا تصدقين ماذا؟».
كانت أليسون قادرة على رؤية نيل من فوق كتف ميغ. وفجأة لمحها أندريه، [illegible] قبل [illegible] [illegible].
«[illegible]».
ثم رحبت به قائلة:
«الصغيران يلعبان هناك، هل ترغب بالانضمام إليهما؟».
هز أندريه رأسه موافقاً وأسرع باتجاه مجموعة الأولاد. وعندها قالت ميغ:
«لا أصدق أني رأيته أخيراً. هل تعتقدين أنه سيأتي للسلام عليك؟».
أجابت أليسون بلهجة جادة:
«لن يفعل إذا سمحت الظروف، لكن أمي قد...».
ورأت أمها وجيمي تدخلان الحقل، فأنهت القول:
«لقد وصلت الآن، وسرعان ما تتضح الأمور».
حدث اللقاء بعد نصف ساعة تقريباً. كانت الجموع قد تجمهرت على طول طريق السباق، حيث بدأ [illegible] قبل [illegible]. ولفت

حتى بلوغها الأزرق الأنيق إلى جانب أليسون والسيدة ماكلي. وفجأة شاهدتها تلوّح لشخص ما لم تسلّم عليه . . . فأدركت أنه بيل.

وهكذا تم اللقاء، ولاحظت رغبة ميغ. راقبت أليسون بيل وابنه يتمشيان ويغرقان في الألعاب الرياضية المختلفة. وفجأة أحست برغبة عارمة في الوقوف على رأي ميغ في بيل ماكرين . . . من دون أن تعرف أسباب هذه الرغبة.

٧ ـ عناق صغير

لم تستطع أليسون الانفراد بميغ إلا في وقت متأخر عندما ذهب بيل وجوني لشراء بعض السندويشات والمرطبات. كان الصوت طاغياً، بحيث اضطرتا إلى الالتصاق بعضهما كي تسمعا ما يقال. بدأت ميغ الحديث قائلة:

«ماذا عن الشخص الذي تعلمين؟».

«فهمت قصدك. ما رأيك به؟».

«هل تظنين حقاً أنه غير جذاب؟».

نظرت إليها باستغراب. فقد اعتادت الصديقتان الحميمتان التحدث بصراحة، مهما كانت الصراحة موجعة. والآن جاء وقت الامتحان بالنسبة لأليسون التي اضطرت للاعتراف:

«أعتقد أنه يملك شيئاً ما!».

«أنا أقول أنه جذاب. بصراحة يا أليسون كنت أتوقع شخصاً كريهاً . . . لكنه في الحقيقة ساحر جداً. عندما قدمته لي أمك، نظر إلي وحيّاني مباشرة بحيث شعرت أن عينيه تتسللان إلى أعماقي. وما تكلّم، حتى كلماته لطيفة وناعمة ووجدت صعوبة في الاقتناع بأنه الشخص الذي تكرهينه. ولولا أني أعرفك جيداً، لقلت إنك تتخيلين المواقف كلها».

انقطع الحديث عندما عاد الرجلان بالأكل والمرطبات. وطيلة السهرة ظلت أليسون تفكر بكلام ميغ وهي تشعر أنها فقدت حليفها الأخير. لذلك، أخذت تفكر بجدية في إذا كان الخطأ في شخصيتها هي.

لعلهم على صواب في رؤيته جذاباً ورائعاً، بينما رؤيتها هي متأثرة بالنزاع العائلي وما حدث قبل تسع سنوات وعشرات الأسباب الأخرى. وتذكرت أيضاً شعورها في العلية عندما زلت بها القدم فأسرع إلى إسنادها... كم تمنت لو أنه يظل ممسكاً بها. قطع صوت جوني حبل أفكارها:

«أين أنت يا اليسون؟».

«متأسفة يا جوني، كنت سارحة بأفكاري».

«دعينا نخرج إلى الهواء الطلق».

عرفت اليسون أن جوني لا يبحث عن الهواء الطلق، ومع ذلك وافقت على الخروج مدفوعة برغبة لم تعرف لها معنى. كان الطقس في الخارج بارداً، فشعرت اليسون برجفة خفيفة. وضع جوني يده على كتفها متسائلاً:

«هل تشعرين بالبرد؟».

«قليلاً».

أحست أنه ينوي معانقتها، لذلك أعدت نفسها لتقبل العناق بهدوء.

سارا في الحديقة حتى وصلا إلى مقعد منعزل. فاعتقدت أنه يأخذها إلى هناك. وفجأة أحست ذراعيه تحتضنانها بقوة. جاهدت كي تستجيب له، لكن شيئاً ما أفقدها الاندفاع والحرارة. وبعد عدة دقائق دفعته عنها مصطنعة الغضب، وصاحت قائلة:

«لقد فاجأتني يا جوني!».

حاول الاقتراب منها مجدداً وهو يقول:

«أرجوك لا تطلبي، فأنت جميلة وفاتنة. تعالي».

«وأنت عظيم جداً».

وتمنت أن تطل عليهما ميغ لانقاذها من هذه الورطة.

لكن جوني واصل المحاولة والكلام:

«أنت تعرفين أنني انتظرت هذه المناسبة طويلاً».

تذكرت اليسون أن حد الحديث معه هو الأفضل. فقد أدركت بعد قبولها الأول أنها أخطأت في الخروج من الغرفة والانفراد... فجوني لم يستطع أن يبعد أفكارها عن الشخص الذي تكرهه والذي يراه الجميع جذاباً

ورائعاً.

واصل جوني الحديث:

«وكم تمنيت أن أطلب منك الخروج معي في سهرة... لكنني كنت خائفاً».

فأطلقت اليسون وهي توجه خطواتها نحو الاتجاه الصحيح إلى الحديقة.

«أنت غاضبة؟ إني لا أستحق ذلك».

«أبداً كنت صادقاً، فأنت مختلفة تماماً يا اليسون... هناك شيء ما ساحر في شخصيتك. أنت أجمل وأروع من أي وقت مضى. آه كم أنا عاجز في إيجاد الكلمات المناسبة».

انحنى عليها يعانقها بقوة ذائبة. ثم أدخل سيجارها دفعة وقال بصوت متكسر:

«أنني أدرك الآن يا اليسون أنك تمثلين لي الكثير... لعلها المرة الأولى في حياتي التي يجتاحني فيها هذا الشعور. لكنني أعرف...».

انقطع كلامه فجأة. اقتربت اليسون منه وعانقته بحنان. فقد كانت الكلمات عاجزة عن التعبير. ثم سارا عائدين إلى الحديقة. وكم تمنت اليسون أن يعثر جوني على الفتاة التي تستحقه وتحبه. فهو إنسان يستحق كل خير... وأدركت فجأة أنها وحيدة، بلا أحد على الاطلاق.

كان نيك قد دعا بيل وميغ إلى زيارة البيت الكبير لمشاهدة التعديلات التي أدخلت عليه. وفي صباح اليوم التالي، الأحد، توجه الزوجان مع اليسون إلى البيت مستعجلين مشاهدة غرفة الرسم التي تستعملها أمها. وعندما دخلوا القاعة هتفت ميغ بتعجب:

«إنه مختلف تماماً الآن».

وهزت اليسون برأسها هزة خفيفة من رأسها. فقد تغيرت الأشياء وباتت باستطاعتها زيارة البيت من دون أن تشعر بالحزن أو الغضب.

«وعما قريب ستكونين قادرة على الدخول من الباب الرئيسي كأي غريب آخر».

أخذتها اليسون إلى العلية حيث اللوحة القائمة بذاتها. وتوقفت قليلاً في

المطبخ حيث ابتدأ بيل في تفحص الأدراج والخزائن. قالت ميغ بدهشة واضحة:

«سيكون مطبخاً رائعاً عندما يكتمل... إنه أجمل من مطبخي!».

أجابت اليسون:

«الواقع أن العلية ستكون رائعة أيضاً. اعترف أن ذوقي في اختياره. إنه هو الذي صنع الخزائن».

نظرت ميغ إلى الباب قائلة:

«إذن هنا وقع الحادث».

قاطعتها اليسون وهي تفتح الباب:

«أجل. لقد أنشيء بعد الحادث مباشرة. كانت مطبخاً في الأساس».

أسرعت اليسون بأخذ ميغ وبيل إلى الدور السفلي لأنها شعرت بعدم الرغبة في تذكر ما وقع في ذلك اليوم المشؤوم. لم يكن قد أجري أي تعديل في الدور السفلي. لذلك لم تقض الثلاثة وقتاً طويلاً هناك بل توجهوا إلى غرفة الرسم للاطلاع على تصاميم السيدة ماكلين.

نظرت ميغ حولها بدهشة عندما رأت القاعة الرئيسية كما تتخيلها السيدة ماكلين، وقالت لاليسون:

«إنها تغريني بأن أزور الفندق عندما ينتهي العمل فيه. الحقيقة يا اليسون أن المكان سيصبح مركزاً مقصوداً».

رفعت اليسون يدها بلامبالاة ظاهرية، لكنها كانت تترقب في الداخل:

«ربما كنت على صواب، لكن الزمن سيكشف كل شيء».

عاد الثلاثة إلى الكوخ لتناول العشاء. فهذه آخر ليلة تستطيع فيها الصديقتان الحديث بصراحة وحرية، ذلك أن بيل وميغ سيغادران عائدين إلى منزلهما غداً صباحاً. كانت ميغ واليسون منهكتين من احتفالات الليلة الماضية، لذلك ما أن بلغت الساعة الحادية عشرة حتى قررتا الذهاب إلى الفراش. شيء آخر زاد في تعب اليسون. فكرت وهي راقدة في فراشها: ما فائدة استمرار المعركة مع العدو؟ أحست أنها تغرق في دوامة رهيبة، من دون أن يفهم أحد حقيقة مشاعرها. لا شك أن أخطاءها ليس

في الأمس... وبحركة مفاجئة دفنت وجهها في الوسادة وانخرطت في موجة بكاء حادة.

مرّ اليومان التاليان بهدوء قاتل. فبعد رحيل ميغ وبيل صباح الاثنين عادت الحياة إلى روتينها المعتاد مما أشعر اليسون بالرغبة في الهرب من البيت. تجنبت قدر استطاعتها المرور قرب البيت الكبير، وظلت بعيدة عن مطبخ الكوخ عندما كان نيال يأتي لأخذ الطعام والشاي. أمضت وقتها مع أندريه والكلب، راسمة في نزهات ريفية تنبعث خلالها بلكنة أندريه الأجنبية وهو يتكلم الانكليزية التي بدأ يفهمها إلى حد ما. ولقد أخبرها الصغير في إحدى المرات عن رحلته إلى اسكتلندا، لكنه لم يستطع أو لم يرد أن يتحدث عن حياته السابقة... لم تجرؤ اليسون بدورها على السؤال. المسألة لا تعنيها على الإطلاق، لكنها ترغب في معرفة شخصية أم أندريه وتفاصيل حياتها.

تجولا كثيراً في الحدائق والسهول التي زادتها الشمس المشرقة والهواء العليل جمالاً على جمال. ولولا ذلك الظل الأسود الذي بقي مسيطراً على تفكير اليسون لكانت العطلة من أروع ما يكون. ولم تفلح كل المحاولات لطرد الوساوس المقلقة، فقد عاد نيال ماكين ليبقى في القرية إلى الأبد. وليس هناك سوى طريقة واحدة وهي أن تغادر اليسون القرية. ويكتب لا تطيق البعد عن بيتها وأهلها.

يوم الأربعاء، تركت اليسون الصغير أندريه مع الكلب في الحديقة وذهبت لشراء بعض الحاجيات الضرورية التي تريدها جيسي. وعندما عادت بعد حوالى الساعة لم تجدهما في المكان الذي تركتهما فيه، لذلك راحت تبحث عنهما وهي تدرك أنهما لا يمكن أن يكونا قد ابتعدا كثيراً. سارت إلى نهاية الحديقة واتجهت في الممر الذي اعتادت أن تأخذ أندريه عبره... وبعد لحظات شاهدت أندريه يقف قرب القارب في حين ظل الكلب بعيداً.

قالت له عندما وصلت إليه:

«لم أعرف إلى أين ذهبت! وعليك ألا تغادر الحديقة قبل أن تطلب الإذن».

نظر إليها بندم قائلاً:

« لم يكن هناك أحد لألعب معه. لذلك جئت لرؤية القارب الذي أحبه كثيراً ».

ابتسمت بحنان وهي تربّت على كتفه:

« ربما يأخذك أبوك بالقارب إلى الجزيرة، هناك ».

وأشارت بيدها إلى الجزيرة القريبة المغطاة بالأشجار الكثيفة.

سألها وعيناه لا تحيدان عنها:

« هل ستأتين معنا ؟ ».

داعبت اليسون شعره وقد أحرجها سؤاله. ثم أجابت بعد لحظات:

« ربما أرافقكما ذات يوم. هيا بنا الآن، فلا شك أن جيمي قلقة عليك، وقد أحضرت بعض الكعك الذي تحبه جداً ».

هلل الطفل بالفرح بيديه. وعندما وصلا إلى عتبة البيت الكبير ألقت نظرة سريعة إلى الممر العلوي فإذا بها تشاهد رجلاً يراقبها من خلف النافذة، ولكنها لم تستطع تحديد هويته لأن الشمس المنعكسة على الزجاج جعلت رؤيته صعبة. حدسها أكد لها أنه نيال، وبحركة غريزية تركت يد الصغير وكأنها تريد أن تؤكد للأب أن الفتى ليس لها أبداً.

في اليوم التالي تلقت اليسون رسالة من اللجنة التعليمية تعلمها فيها أن المدرسة ستغلق حتى إشعار آخر بعد عطلة رأس السنة، وأن التلاميذ الباقين سيلحقون بمدرسة ستراتكوران، وأن باصاً خاصاً سينقل الأطفال إلى المدرسة الجديدة والأهم أن اليسون ستلتحق بالمدرسة مؤقتاً ريثما يصدر قرار تعيينها الجديد. ومع أن اليسون كانت تتوقع بعض هذه الإجراءات، إلا أن الرسالة أصابتها بصدمة عنيفة بدت واضحة على وجهها. فسألتها أمها التي كانت تجلس معها إلى مائدة الفطور قائلة:

« ماذا في الرسالة يا اليسون ؟ ».

ودون أن تجيب سلمت الرسالة إلى أمها، التي أعادت القراءة مرتين وهي لا تصدق عينيها. ثم قالت بحزن وأسى:

« أنا متأسفة يا اليسون، لكن ألم تتوقعي هذه الإجراءات ؟ ».

« كنت أعرف جزءاً من التفاصيل. لكنني لم أرغب في إزعاجك أو تحميلك همومي وانشغالي. لذلك صمتُّ إلى أن تأكد الموضوع ».

« كان عليك أن تخبريني. الآن عرفت لماذا أنت تعيسة إلى هذا الحد ؟ ومع ذلك فإن ستراتكوران غير بعيدة.

لعل ما تحدث قبل نهاية العطلة ».

لكنها تدرك في أعماق نفسها أن لا تحدث هكذا.

في وقت لاحق من بعد الظهر، التقت اليسون جون أمام مكتب البريد، لأول مرة بعد ليلة الاحتفالات.

قال لها وهو يدخل إلى المكتب:

« دقيقة واحدة فقط، وسأرافقك في طريق العودة ».

بعد لحظات لحق بها على الطريق وهو يدس علبة سكاكر في جيب سترته. قالت له:

« لو عرفت أنك تريد سكاكر لكنت أحضرتها لك معي ما دمتُ قد قصدت المكتب لبعض العمل ».

أجابها مبتسماً وهو يأخذ الأشياء من يدها:

« وكيف ستعرفين ما دمتِ تتهربين من طريقنا دائماً ؟ ».

اعترتها سخونة عندما وضع يده على كتفها:

« أتقول هذا يا جون. تحمل لي حاجياتي وتمسك بيدي ؟ ألا تشك أن أهل القرية سيسجلون حولنا العديد من الروايات والشائعات ! ».

« سنعطيهم شيئاً يبعد عنهم الملل. هل ترغبين أن أعانقك أمام الجميع ؟ ».

حدقت اليسون مضطربة وهي تلاحظ الأعين الفضولية، ثم قالت:

« لن تجرؤ على ذلك ؟ ».

أجابها بابتسامة عريضة

« إذن انتظري حتى نصل قرب البيت... وعندها ستعرفين ! ».

التفتت إليه مرتبكة. هل نسي فعلاً الكلمات التي قالها في تلك الليلة ؟ لعله قصدها في وقتها فقط، أما الآن فقد أصبحت في خبر كان ؟ كانت يده دافئة في يدها، وهما يتحدثان عن العمل، وعن ميغ ونيل وعن ليلة الاحتفالات... لكنهما لم يذكرا نيال ماثيس أبداً، وكأنه لا وجود له البتة.

قال جون عندما وصلا إلى الباب الخلفي للبيت الكبير:

« سأحضر شخصياً كي أتناول الطعام عند الظهر، فهل عندك

مايع؟ »
ردّت اليسون بلطف :
« سيكون ذلك شرفاً كبيراً لنا ».
مدّت يدها لتناول الأغراض منه وقد استدارت تعيف دورة للذهاب إلى الكوخ، وفجأة قال لها بصوت هامس :
« أليسون؟ »
التفتت إليه متسائلة، فإذا به يتحسّس ثيابها ويضمّها في عناق قصير. وفي هذه اللحظات بالذات، ظهر نيال خارجاً من موقف السيارات وهو يحمل بعض الأخشاب. نظر إليهما دون أن يتكلم، ثم اختفى داخل البيت بسرعة.
ودعها جوني ودخل إلى البيت، تاركاً إياها مع سؤالين لم تستطع إيجاد أجوبة عليهما. هل كان جوني يعرف أن نيال في موقف السيارات؟ وهل عانقها عمداً في ذلك المكان بالتحديد؟
أمضت اليسون بقية ذلك النهار في تصميم وخياطة فستان خاص بها، في حين كان أندريه جالساً بالقرب منها يتأمل باهتمام دوران الخياطة المتقطع. وعندما تأخر الوقت، قربت الأغطية إلى النوم والراحة قليلاً على أمل أن تنجز الفستان في اليوم التالي. استيقظت صباح يوم الجمعة كالمعتاد. وبعد وقت قصير حضر أندريه برفقة أبيه الذي لم تلمح منه سوى كتفه وهو يغادر المطبخ من الباب الخلفي. وما أن رآها أندريه حتى أسرع يحتضنها والفرحة الغامرة تغمر كل قسمات وجهه. قال لها :
« والدي أبي على اصطحابي إلى الجزيرة غداً. لقد شاهدنا أمس معاً بجانب القارب، وقرر أن يأخذني فيه ».
هزت اليسون رأسها بلطف. كان نيال هو الشخص الذي أطل من النافذة إذن، ولعله لاحظ الحسرة في عيني ابنه وهو يحدق إلى القارب فحن قلبه له.
« سألته إذا كان من الممكن أن يأخذك معه، فقال إن الآنسة ماكاي مشغولة جداً ولا تستطيع أن ترافقنا ».
ردّت اليسون بابتسامة خفيفة :
« أجل. أنا مشغولة كثيراً. ربما أفعل ذلك في يوم آخر. والآن هل تريد

الخروج في نزهة قبل أن نعود لمواصلة الخياطة؟ ».
التمعت عيناه فرحاً وهو يهز رأسه موافقاً.
وشعرت اليسون ببعض الارتياح لأن نيال قد بدأ يحمل مسؤوليته كأب على محمل الجد.
مر الصباح مثل أي صباح آخر في موسم العطلات. ويوماً بعد يوم، بدأ أندريه يتغلغل في التفاصيل الحميمة لحياة اليسون، التي راحت تتساءل وهي تحتسي فنجان القهوة بينما أندريه يحاول إجبار الكلب على الجلوس لتناول قطعة من البسكويت، عما إذا كان نيال مسروراً لقرار إغلاق المدرسة بعد عطلة رأس السنة. ودون أن تدري سكبت القهوة الساخنة على آلة الخياطة. نظفتها بسرعة وهي تتساءل ماذا بي هذه الأيام؟ فهي تعرف أنها متعبة خاصة أن النوم جافاها طيلة الأسبوع الماضي، وقد بدأت الهالات السوداء تظهر تحت عينيها. وتذكرت أن عطلة عادة بعيدة عن شواطئ وكل سكانها يمكن أن تفيدها كثيراً. ولكنها لا تريد مغادرة القرية خوفاً من حدوث أشياء غير سارة خلال غيابها. من غير المعقول أن يتزوج منها نيال أكثر مما أخذ حتى الآن، ولكن كل شيء ممكن مع شخص مثله. وفجأة تذكرت حلماً شاهدته ليلة البارحة. حلمت أنها عادت من المدرسة فوجدت الكوخ خالياً وبارداً، وعندما صرخت بأعلى صوتها سمعت نداء من البيت الكبير فأسرعت راكضة إلى هناك وكأن آلاف الأغلال تعيقها عن المشي. ولما وصلت بعد مشاق كثيرة رأت أمها تستقبلها على الباب الخارجي كما في الأيام الماضية. في الداخل وجدت القاعة الرئيسية وقد تغيرت تماماً، ولاحظت أن أمها ترتدي زياً هو الزي نفسه الذي ترتديه جيسي التي دخلت الآن. تسأل اليسون إذا ما كانت راغبة في فنجان من الشاي ... ثم استيقظت مذعورة والعرق الغزير يتصبب من كل أنحاء جسدها.
عادت السيدة ماكاي ظهراً لتناول طعام الغداء مع اليسون وجيسي، وقبل تقديم الحلويات ، قالت السيدة ماكاي :
« سوف يعملون في تهديم جزء من جدار غرفة الرسم تمهيداً لإقامة باب خاص. لذلك انشغلت طيلة الصباح بنقل اللوحات إلى مكان أمين ».
سألتها اليسون :

«هل تحتاجين الى مساعدة؟ أنا وأندريه يمكن أن نساعدك بعد الظهر اذا رغبت؟».

نظرت أمها مبتسمة:

«أتمنى ذلك. فهناك لوحات كثيرة أريد نقلها. بالاضافة الى ذلك، فلم أعد أراك كثيراً في الآونة الأخيرة».

وتدخلت جيني قائلة:

«وسأقدم لكما الشاي بنفسي، عند الساعة الثالثة والنصف».

وهكذا كان. فبعد أن انتهى الغداء، انتقل الثلاثة الى غرفة الرسم الملحقة بالبيت الكبير، واندمجت اليسون في العمل بحيث نسيت الوقت تماماً الى أن قال اندريه:

«أريد أن أشرب؟».

نظرت اليسون الى ساعة يدها فوجدت أنها قاربت الساعة الرابعة، قالت له:

«يبدو أن جيني نسيتنا، فهيا بنا نحضر الشاي».

عبرت اليسون واندريه الغرف والقاعات واحدة بعد الأخرى وهي تتوقع في أية لحظة أن تعثر على جيني غارقة في حديث لا ينتهي مع أحد العمال، بينما الآخرون ينتظرون الشاي وما ان اقتربت من المطبخ سمعت صوت أزيز ابريق الشاي على النار، فأسرعت راكضة ونفسها تحدثها بوقوع حادث خطير. للحظة الأولى اعتقدت أن المطبخ يحترق، لكنها اكتشفت بعد اطفاء النار أن بخار الماء هو الذي يحدث ضباباً في المطبخ دالاً على أن الابريق يغلي منذ مدة طويلة.

ركضت الى الداخل تاركة اندريه خلفها، وقلبها يخفق بشعور هو مزيج من الخوف والقلق. لم تستطع أن ترى شيئاً في المطبخ بسبب البخار، لذلك انطلقت الى غرفة الجلوس وهي تصيح:

«جيني... جيني».

فجأة سمعت أنيناً خافتاً من مكان ما في الداخل، فأحست قلبها يسقط من قدميها هلعاً. وسرعان ما لمحت جيني منكومة قرب الباب والى جانبها سلم خشبي مرمي تفاصيل ما حدث. ركعت اليسون بالقرب من العجوز المسكينة ومسحت على وجهها قائلة:

«أيتها العزيزة جيني، ابقي في مكانك دون حراك. سأطلب مساعدة فورية».

ثم قفزت نحو الصبي المذعور المنتظر في الخارج قائلة:

«أسرع واحضر أباك فوراً... وأمي أيضاً».

انطلق أندريه فوراً نحو البيت الكبير في حين قامت اليسون بوضع أريكة تحت رأس جيني دون أن تجرؤ على النظر الى قدمها اليسرى التي كانت مطوية بشكل مزعج. تمنت اليسون أن تصل المساعدة بسرعة وأن لا تكون القدم مكسورة فعلاً. وفجأة مدت جيني يدها الى اليسون قائلة بصوت باك:

«كنت أتناول بعض المعدات عندما تحطم السلم الخشبي. وآخر شيء أتذكره صوت ابريق الشاي وهو يغلي».

شدت اليسون على يدها قائلة:

«لا بأس عليك. لقد ذهب أندريه لاحضار أبي ونيل. لحظة واحضر لك غطاء دافئاً».

في هذه الأثناء، كان نيل قد وصل برفقة جوني. ومن خلال النظرة التي شاهدتها على وجهه، أدركت اليسون أن قدم جيني مكسورة فعلاً. التفتت الى جوني متسائلة:

«هل عرفت أمي بالحادث؟».

رد جوني بصوت خافت:

«أجل، لقد ذهب أندريه لاحضارها بعد أن أخبرنا. وجهك شاحب اللون يا اليسون».

«أنظر الى قدمها إنها مكسورة».

تدخل نيل الذي كان يفحص القدم قائلاً:

«هل هناك طبيب في هذه المنطقة؟».

أجاب جوني:

«أجل، هل تريدني أن أحضره؟».

«لا، الأفضل أن ننقلها الى هناك. أرجو أن تحضر السيارة الى الباب الخلفي. وأنت يا اليسون عليك بتجهيز مجموعة من الوسائد والأغطية».

ثم التفت الى جيني مبتسماً:

« لا تقلقي يا عزيزتي، بعد قليل ستكونون على خير ما يرام، فأنا معتاد على مثل هذه الاصابات. »

بعد حوالي عشر دقائق ذهب الرجلان بجيسي الى طبيب القرية، ورافقتهما السيدة ماكاي التي أصرت على أن تكون معهم. أما اليسون فقد ظلت في البيت مع اندريه لتنتظر عودتهم على أحر من الجمر. وبعد نصف ساعة من الانتظار رن جرس الهاتف، فأسرعت اليسون تجيب وقلبها يرتعش قلقاً.

٨ ـ عناق في الممر

كان جوني على الطرف الآخر من الخط، وقد بدأ كلامه قائلاً:

« أود أن أخبرك أنهم توجهوا الى أبلفريتس».

أجابت بصوت متوتر قلق:

« لماذا؟ ماذا حدث».

« ذهبنا الى عيادة الطبيب، لكنه كان مشغولاً في ولادة احدى نساء القرية ولم نستطع الوصول اليه. قامت زوجته بإعطاء جيسي حقنة مهدئة وسألتنا إذا كنا نريد استدعاء سيارة اسعاف... غير أن ثيان فضّل أن يأخذها الى المستشفى بنفسه توفيراً للوقت».

« وأين أمي الآن؟».

« ذهبت معهما أيضاً. لقد طلبت مني أن أخبرك أنها ستتصل بك هاتفياً من المستشفى فور حصولها على معلومات جديدة... ربما بعد عدة ساعات».

شعرت اليسون بالألم عندما تصورت المسافة الطويلة التي يجب أن تقطعها جيسي وهي في مثل هذه الحالة.

ثم جاء صوت جوني مجدداً:

« كما طلب مني ثيان أن أسألك اذا كان بامكانك رعاية اندريه حتى يعود».

« طبعاً... طبعاً، ان سيارتك هنا، فهل ستعود لأخذها؟».

« كلا. وأرجو أن تطلبي من لوري أن يقودها الى ستراتكوران على أن يتبعه ايان في سيارتهما... فهذا يوفر عليّ الكثير من الوقت». تردد قليلاً

قبل أن يضيف بلهجة غريبة: «الحقيقة أن نيال أصر على ذلك رغم استغرابي الشديد؟».

لكن فكر اليسون كان مشغولاً بأمور أخرى فلم يهتم بالمعنى الذي انطوت عليه كلماته. أسرعت تعطي التعليمات الأخيرة لكامبرون، ثم عادت الى الكوخ وأعدت وجبة خفيفة لها ولأندريه. حاولت أن تدخل نفسها بمشاهدة التلفزيون ثم بالقراءة، ثم عادت الى التلفزيون... ولكن فكرها كان معلقاً بالهاتف. من المؤكد أنها لن تحصل قبل الساعة الثامنة على الأقل، فالمسافة الى المستشفى بعيدة. ومع ذلك ظل قلبها مرتبطاً بمكالمة هاتفية ملحة.

بعد الساعة الثامنة والنصف رن جرس الهاتف، وكانت السيدة ماكاي على الطرف الآخر:

«اليسون يا حبيبتي، اعتذر لأنني لم أكن قادرة على الاتصال مبكراً. لقد تركنا جيمي ترتاح في سريرها الآن».

«كيف وضعها؟ ماذا قالوا؟».

«لم يعرفوا بعد. لقد صوروا قدمها وذراعها بأشعة اكس، وبعد قليل تظهر النتائج. اليسون...».

قاطعتها متسائلة:

«ماذا؟».

«لقد قررت البقاء هنا. اتصلت بنيح فدعاني لتمضية الليلة عندهم. فهذا أقل ما يمكن أن أفعله من أجل جيمي التي ليس لها أهل أحد غيرنا».

«طبعاً يجب أن تبقي الى جانبها. هل تريدين أن أضع اندريه في الفراش هنا؟».

«نيال بانتظاري في الخارج هل أدعك تحدثين اليه؟».

ردت اليسون بسرعة:

«ليس من الضروري، فقط بلغيه أن اندريه مرتاح معي. وأرجوك أن تنقلي قبلاتي القلبية الى جيمي. ولا تنسي أن تتصلي بي غداً».

ودعتها أمها وأغلقت الخط. أعادت اليسون السماعة من طرفها وهي تشعر بالارتياح على الأقل لأنها عرفت أين يمكن أن تتصل بأمها إذا دعت الظروف.

عادت الى اندريه وأخبرته أن بامكانه قضاء الليل معها.

تساءلا وقد علت الابتسامة وجهه:

«هل يمكن أن ينام راستي بجانبي؟».

ضحكت اليسون وقالت:

«سنرى بعد قليل. والآن جاء وقت النوم، فهيا نغتسل ونقرأ قصة جميلة... ثم الى الفراش».

بلغت الساعة الحادية عشرة ليلاً واليسون ما زالت ساهرة تشاهد فيلماً تلفزيونياً طويلاً. كان المطر ينهمر غزيراً في الخارج، أما الداخل فكان دافئاً ومريحاً. في احدى الزوايا رقد راستي، في حين كان اندريه يغط في نوم عميق في غرفة اليسون بانتظار أن يأتي والده ويأخذه صباحاً.

انتهى الفيلم التلفزيوني، فوقفت اليسون استعداداً للنوم عندما سمعت قرعاً خفيفاً على الباب. نظرت الى الساعة فوجدتها قد شارفت على الثانية عشرة. اقتربت من النافذة لكنها لم تستطع أن ترى شيئاً.

عادت الطرقات تتجدد بقوة أكثر مما أيقظ راستي الذي هب واقفاً وهو يهز ذيله بتوتر. امسكت اليسون بطوق راستي وتوجهت نحو الباب قائلة:

«من هناك؟».

«أنا نيال ماكرين».

فتحت الباب، كان واقفاً تحت المطر الغزير. قالت له وقلبها يخفق بشكل غريب:

«كنت على وشك أن أنام».

أجابها بهدوء:

«لن أزعجك كثيراً. رجعت فقط لأعيد الأغطية. وما عليك إلا فتح الباب وسأحضرها من السيارة بنفسي».

شرعت اليسون الباب وراقبته وهو يقطع المسافة القصيرة بين الباب والسيارة تحت المطر، ثم يعود حاملاً الأغطية والوسائد. قالت له بعد أن وضع حمله فوق احدى الطاولات:

«كان من الممكن أن تعيدها في الصباح».

«ربما، لكن أمك طلبت مني أن اطمئن عليك».

كان صوته بارداً، لكن عينيه لم تفارقا وجهها لحظة. لذلك أحست

بالإحراج الشديد خاصة أنها كانت في ثياب النوم. وتمنت لو أنه يترك البيت بسرعة. وفجأة، تذكرت ما حدث ليلة البارحة عندما شاهد عناقها مع جوني.

فنظرته في هذه اللحظات تشابه نظرته بالأمس. لكن لماذا هي مهتمة إلى هذا الحد؟ فجوابا ملكها، وليس له أن يتدخل في أمورها الشخصية. ومع ذلك ظلت تشعر بالإزعاج، وللتخلص من الورطة قالت:

«أنا بخير، وكذلك اندريه، سوف يكون مستعدا عند الصباح لرافقك إلى الجزيرة- ثم أضافت- أرجو أن لا تقلق، فسأحاول أن لا أبدو مشغولة عندما تأتي لرافقته».

التمعت عيناه غضباً عندما أدرك ما عنته بكلامها، ثم قال بهدوء:

«لا تقولي أنك كنت راغبة في مرافقتنا؟».

ردت على ابتسامته الساخرة بلهجة حنقة:

«لو أن الرحلة مع اندريه لكنت وافقت بسرعة... لكنني جربت النزهة معك من قبل».

سألها بنعومة:

«ولن تجربي مرة اخرى؟».

«الرحلة الأولى لم تكن ممتعة على الاطلاق. صحيح أني أحب الجزيرة، لكنها لم تعد ملكنا».

ثم ترددت لحظات قبل أن تقول: «إنني متعبة جدا».

فأطبقت شفتاه وهو يقول:

«طبعاً تريدين أن أرحل. وما دمنا عاجزين عن الحديث كالناس المتمدنين، فمن الأفضل لي أن أرحل، في كل حال أنا لست جوني، أليس كذلك؟».

اجتاح اليسون شعور بالغضب والخجل من جراء النظرة الحادة الشخصة التي صوبها نحوها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. ثم سألته:

«وماذا تقصد بكلامك هذا؟».

أجابها بهدوء مثير:

«يمكنك أن تفسريه كما تريدين، ما دامت تصرفاتك أمام الناس على تلك الصورة».

قاطعته غاضبة:

«إذا كنت تعني ما حدث أمس، فدعني أؤكد لك أننا لم نكن في مكان عام. وما دمت تتسلل وتختبئ، فيجب أن تتوقع رؤية أمور يجب ألا تراها أبدا».

رفع حاجبيه مستغرباً:

«لم أكن متسللاً، بل كنت أتجول».

وفجأة تذكرت اليسون كلمات جوني الأخيرة على الهاتف، فقالت:

«الآن فهمت السبب الذي دعاك إلى منع جوني من المجيء لأخذ سيارته... قلت لا تريده هنا».

وادركت اليسون أنها أصابته في الصميم عندما لاحظت تقلصات وجهه الغاضبة، لذلك تابعت قائلة:

«يجب أن أشكرك على جهودك المستمرة لحمايتي، لكنني أؤكد لك أنني لست بحاجة لمن يحميني من جوني، فهو رجل مهذب على الأقل».

«وأنا لست مهذباً؟».

أصبح صوته الآن أكثر حدة، مما أشعر اليسون ببعض الارتياح لأنها استطاعت جرحه أخيراً.

ردت عليه بصوت قاس:

«أنت الذي أثرت الموضوع، ويمكنك أن تفهم كلامي كما تشاء».

سألها بلهجة جافة:

«وكيف هي طريقة الرجل المهذب في العناق؟ هكذا...».

وفجأة امتدت اليها ذراعاه القوية وضمها في عناق حار لكنه لطيف في الوقت نفسه واستغربت اليسون كيف أنها استسلمت بذراعيه وأحست أن جسمها يتجاوب معه. لم يكن عناق جوني في مثل رقة وحنان وجمال عناق نيك. وبعد لحظات من التردد والحيرة، استطاعت أن تجذب نفسها من بين يديه وتصرخ في وجهه قائلة:

«اخرج من هنا، هيا اخرج بسرعة».

غامت عيناه خلف سحابة سوداء وهو يرد بغضب:

«ليس قبل أن انتهي منك».

قالت بصوت حاولت أن يخرج خافتاً:

«إياك أن تمسني مرة أخرى».
سألها بسخرية:
«حاقدة؟ قد لا أكون رجلاً مهذباً كما اعترفت قبل قليل، لكنني لا أستعمل القوة مع النساء... أبداً».
أجابته قائلة:
«لكنك فعلت عندما عانقتني بالقوة».
ردّ عليها بنعومة:
«عندي انطباع بأنك استمتعت بالعناق، على الأقل لم تحاولي منعي. والحقيقة أنك كنت بحاجة إليه».
ارتفع صوتها غاضباً وهي تقول:
«لديك طريقة غريبة في تفسير تصرفات الناس. عليك أن تعرف أنك لم تشترني عندما اشتريت البيت. فعليك أن تفهم هذا الأمر في المستقبل».
وبهدوء وحزم، سارت نحو باب الكوخ وفتحته على اتساعه قائلة:
«وأنت لم تشترِ هذا الكوخ أيضاً، فمن حقي بالتالي أن أطلب منك مغادرته. فهل تتفضل بالرحيل».
[illegible]
[illegible]
لذلك عضت على شفتها قائلة:
«إنه في غرفة نومي».
انتظرت اليسون في القاعة الخارجية إلى أن عاد نيال من غرفة نومها... [illegible] عندما تكشف مشاعرها. قالت له:
«[illegible] ستغلق بعد عطلة رأس السنة، وعندها سينتقل اندريه إلى [illegible]، وستكون سعيداً عندما تعرف أني لن أكون معه بعد ذلك».
توقف نيال في منتصف القاعة بينما كان في طريقه إلى الخارج ثم استدار ببطء شديد وعلامات الانفعال ظاهرة على وجهه. وسألها بغضب حاد:
«ولماذا أكون سعيداً؟».

«هل تعتقد أني لم ألاحظ موقفك عندما يكون اندريه معي؟ لقد شاهدتك وأنت تراقب بينما كنا على الشاطئ، قبل أيام. أنا لست ملكك، ولا أريد أن أسرق الأشياء والناس الذين تحبهم. فأنا أحب اندريه لأنه ولد رائع، وربما للأسف فأنت لا تحبه».
حاولت مغادرة القاعة إلى المطبخ هرباً من الحقد البارد الذي ارتسم على وجهه لكنه استوقفها قائلاً:
«الأفضل أن تشرحي كلامك بالتفصيل، لأني لن أغادر المكان قبل أن أحصل على إيضاح كافٍ».
أحست اليسون أنه يقف خلفها، فاستدارت لتواجهه وقد امتلأت نفسها بكل المشاعر الغضبية التي اختزنتها منذ أسابيع، خاصة فيما يتعلق بموقفه من ابنه. قالت له:
«سأوضح لك الأمر. أنت تتصرف معه كرجل غريب، ولقد عرفت في [illegible] بحيث لم أقدّر وحدته وغربته. وحتى عندما تتكلم عنه تقول (الولد) و(الصبي) وليس (ابني اندريه). ألا تعتقد أنه يحس بذلك؟ إنه يملك قلباً [illegible]
[illegible]
«وأنت لا تتحدث مطلقاً عن زوجتك، وعندما تذكرها تشير إليها باسم (أم اندريه)».
قاطعها قائلاً:
«لعلي أفعل ذلك لأنها ليست زوجتي».
[illegible] اليسون [illegible]، ثم [illegible] رابطة جأشها متسائلة:
«هل تقصد أنك لم تكن متزوجاً منها؟».
وقف أمامها بتحدٍ صامت:
«كلا».
«إذاً فهو...».
ترددت اليسون في إكمال جملتها. فتدخل نيال قائلاً:
«إنه طفل غير شرعي؟ هل أنت خائفة من استعمال هذه العبارة؟ لكني أستغرب ذلك».

«لقد فهمت».

«لا أعتقد أنك فهمت شيئاً على الاطلاق. والحقيقة يا آنسة ماكاي أن الوقت قد حان لأطلعك على بعض الحقائق الأساسية عن الحياة. والآن سأخبرك شيئاً لا يعنيك بتاتاً، ولكن لا بأس من معرفتك له، فلعله يساعدك على التفكير. أندريه هو ابني بالتبني، أبوه الحقيقي هو أخي دانكان الذي ارتبط بعلاقة عاطفية مع فتاة برازيلية. في حين كان خطيباً لفتاة أخرى. وعندما قرر ترك البرازيل، تبين له أنها حامل. فعمد إلى دفع نفقة شهرية إلى الأم والابن دون أن يخبر زوجته الشرعية التي تنحدر من عائلة ثرية في الريو. وقبل أشهر عرف دانكان أن أم أندريه مريضة، لذلك طلب مني الذهاب لتفقد أحوالها. ولما وصلت كانت الأم قد ماتت ووضع الابن في دار للأيتام ولقد رفضت عائلة الفتاة الاهتمام بأندريه، خاصة أنهم فقراء للغاية... لكنهم يريدون النفقة الشهرية التي تأتيه من أبيه. هذا الموقف القاسي أثار حفيظتي، وبعد جهد استطعت اقناعهم بأخذ أندريه من دار الأيتام ولقد لعب المال دوراً في هذا المجال. إنني لست عاطفياً، لكن أندريه مس قلبي وحسي. وعندما رأيته لأول مرة أدركت...».

توقف نيال عن الكلام للحظات، ثم تابع بقسوة أشد:

«وها أنت تقولين إني أهمل أندريه وأعامله كغريب إلى حد ما. ربما هكذا كنت في بداية الأمر. أما الآن، فأنا أتعلم كيف أكون أباً حقيقياً. لكنك لا تلومين ذلك، ما دمت ترين الأمور من جانب واحد. يبدو أنني فشلت بنظرك. لا بأس، سأحاول إصلاح الأمر... لذلك سآخذه معي الآن إلى البيت».

بذلت جهداً كبيراً للنطق:

«أرجوك ألا تفعل. دعه في فراشه دافئاً ومرتاحاً».

لم تحرك الدموع في عينيها أية مشاعر في نفسه، لكنه هز رأسه قائلاً:

«لا بأس سأحضر باكراً لآخذه من هنا».

غادر نيال الكوخ بخطوات سريعة حازمة من دون أن ينطق كلمة. أما أليسون فقد تسللت إلى غرفة نومها وهي عاجزة حتى عن البكاء!

٩ ـ سقوط المطر

عند الساعة التاسعة تماماً، كان نيال يقف أمام باب الكوخ بانتظار ابنه، حاملاً في يده اليسرى سلة طعام ومرطبات، وفي اليمنى معطفاً واقياً من المطر لأندريه.

وجّه تحية الصباح إلى أليسون قائلاً:

«شكراً لك لأنك رعيت ابني أمس. أندريه، عليك أن تشكر الآنسة ماكاي لاهتمامها بك».

كان نيال جافاً وبارداً في تصرفاته معها، وكأنه غريب تماماً عنها. وعندما غادر البيت، وضع يده في يد أندريه الذي كان يقفز فرحاً.

وقفت أليسون عند النافذة تراقبهما وهما في طريقهما إلى القارب. لقد اعتقدت أنها تكره نيال ماكيون، لكن أندريه كشف لها أنها تكره نفسها فقط.

اتصلت بأمها من منزل ميغ بعد قليل وأخبرتها أن صور الأشعة أظهرت عدم وجود كسور في ذراع وقفص جسي، وكل ما في الأمر أن عضلات القدم تمزقت وهي تحتاج إلى عدة أيام من الراحة. سألتها السيدة ماكاي قائلة:

«جسي ستعود إلى البيت يوم الثلاثاء، وأريد أن أعرف إذا كان عندك مانع في أن أبقى معها حتى ذلك الوقت؟».

«لا مانع أبداً. على كل أنت بحاجة إلى الراحة بعد أسابيع طويلة من التعب والإرهاق».

«أشكرك يا حبيبتي، وأرجو أن تشرحي لنيال أسباب غيابي».

وطيباً. وسأتصل بك هذا المساء. أرجو أن تسامحني عن جني وتأخذي هذه باقة من الزهور باسمي.

بعد هذه المكالمة الهاتفية، أصبحت اليسون وحدها. وجدت نفسها تعيد التفكير في تصرفاتها. وأكدت عندما أدركت أنها كانت أنانية في تعاملها مع الآخرين. لقد خاضت المعركة ضد أبيها لأنها أرادت بيع البيت، وخاضتها ضد نيل ماكيون الرجل الذي هو المكان كله والذي تبين أنه أشد السود من كل الناس. فأشق خطوة كبيرة حاسمة، لكنه لم يتردد في الإقدام عليها في حين اتهمته اليسون خطأ بأنه لا يهتم بذلك الطفل المسكين. اكتشفت أن أمامها الكثير لتتعلمه، والدرس الأول كان الليلة الماضية، وربما كان الدرس الأخير!

وأدركت بعد فوات الأوان أن نيل رجل حقيقي وجذاب بكل معنى الكلمة. وأن كل المشاكل التي أثارتها في وجهه لم تستطع الحد من قوة إرادته أو تحطيم كرامته.

أمضت اليسون في البيت الفارغ متعبة ومنهكة القوى لأنها لم تنم إلا قليلاً. وبعد أن غادرها نيل الليلة الماضية كان البيت بحاجة إلى ترتيب عام، فحسبي أن تستطيع العمل عندما تعود إلى البيت.... وهي اليسون أن تحول مهمات التنظيف والترتيب والطهي طيلة الفترة المقبلة. وهكذا أمضت اليسون نهارها في متابعة شؤون البيت.

في آخر الساعة السادسة جلست تتناول فنجاناً من الشاي وهي تحس بالتعب النفسي والجسدي على حد سواء. لقد حاولت شغل نفسها بالعمل الشاق، ولكن ما أن ارتاحت حتى عاودتها الهواجس من كل حدب وصوب.

أنهت فنجان الشاي وهي تتمنى لو أنها تستطيع الابتعاد عن المنطقة حتى تتمكن من إعادة دراسة الأمور برؤية أكثر. وفجأة لمحت القارب يتهادى على صفحة الماء حاملاً نيل والفريد من رحلتهما إلى الجزيرة. وقفت تتأملهما وهما يعبران الخروج إلى البيت دون أن يلتفتا إلى حيث تقف. ماذا تتوقع غير ذلك؟ هل اعتقدت أن نيل سيأتي إليها ليخبرها عن الرحلة؟

ابتسمت بمرارة عميقة وسارت نحو النافذة تتأمل القارب الراسي في مكانه المعتاد. ولم لا؟ ستأخذ القارب مجدداً، إنها رحلة بحرية صغيرة

يمكن أن تساعدها على التخلص من الأفكار والهواجس.

حزمت أمرها بسرعة، ثم توجهت مع الكلب نحو القارب. كانت السماء الصافية والغيوم القطنية المتناثرة لا تنذر بخطر قريب، وفي كل مكان طيور النورس ترافقها أينما اتجهت. أدارت محرك القارب وهي تتأمل الجزيرة البعيدة. هناك تستطيع اليسون أن تفكر بهدوء، ولعلها تقدر على اكتشاف الأحاسيس الغامضة التي تضغط على فكرها وعقلها وروحها.

اقتربت اليسون إلى الشاطئ، فلمحت سيارة نيل الزرقاء وإلى جوارها عدة أطفال يلعبون... تنهدت بصمت وعادت تتأمل الجزيرة التي أخذت تتضح معالمها كلما أسرع القارب في سيره نحوها. وتساءلت اليسون عن مشاعر أندريه عندما دخل الجزيرة لأول مرة. لا شك أنه شعر بالسرور والإثارة والاستغراب، وأيضاً بالخوف من عتمة الجزيرة وغموضها.

وتمنت من كل قلبها أن يكون أندريه قد تابع رحلته، فهي تريده أن ينعم بالسعادة الحقيقية بعد البداية التعيسة التي كانت عليها حياته في البرازيل. ورغم كل مشاعرها تجاه نيل، فهي متأكدة أنه قصد كل الكلمات التي أطلقها بمرارة الليلة الماضية. إنه يحاول أن يكون أباً حقيقياً لأندريه، ولا شك أنه سيكون أباً عادلاً رحيماً وليس قاسياً على الإطلاق... وهو عندما كان صغيراً...

انقطع حبل أفكارها عندما لامس القارب رمال شاطئ الجزيرة، وفجأة اتضحت لها الأشياء التي كانت تثقل على نفسها وعقلها خلال الأيام القليلة الماضية، وأدركت بوضوح لماذا كانت تخوض معركة شرسة ضد الجميع منذ أن عاد إلى القرية.

أدهشها الاكتشاف الجديد وأخافها، ووجدت نفسها تغادر القارب مع راستي، وتحث خطاها إلى الجانب الآخر من الجزيرة حيث المحيط الممتد.

لم تستطع تحديد مشاعرها الجديدة، فهي تعرف لماذا قاومت بشدة دخول نيل إلى حياتها، ولماذا يخفق قلبها ويكاد يتوقف عن الخفقان كلما اقترب منها.

لقد كانت تصرفاتها مجرد دفاع يائس ضد قلبها الذي خانها بشكل واضح. الآن فقط باتت باستطاعتها فهم الكلمات المتجمدة على شفتيها

وعند طرف الجزيرة الآخر، أطلقت العنان لصوتها قائلة :

« اني أحب نيال ماكين ».

نفرت الدموع من عيني اليسون وهي تعترف بأنها احبت رجلاً لسنوات طويلة، وان هذا الرجل يحتقرها ويعتبرها تافهة. كم سيضحك ويقهقه عندما يعرف الحقيقة. لقد شاءت الظروف أن يأخذ قلبها رغم أنها حاربته بكل قوتها وسرعان ما عادت الى ذاكرتها كل الأشياء الصغيرة التي حاولت تجاهلها... وتذكرت امراً حدث قبل سنوات وسنوات، وكانت تتعمد تناسيه دائماً.

وقع الحادث في المدرسة عندما كانت في السادسة من عمرها، ونيال في الثانية عشرة. كانت الآنسة كارميكل المعلمة الخاصة قد غادرت قاعة الصف لدقائق تاركة التلاميذ في دروسهم. وفجأة سقطت ورقة مبللة بالحبر عن طاولة البنك الذي اتهم نيال على الفور. وكان من الطبيعي أن يندلع عراك حاد، حاولت اليسون أن توقفه قبل عودة الآنسة كارميكل. وفي خضم المعركة تلقت اليسون لكمة حادة القتها الى الخلف وهي تصرخ ألماً. وهنا توقف الصبيان عن القتال واقتربا منها بخجل. وفجأة انحنى نيال نحوها وانهضها متجاهلاً نظرات البنك والتلامذة الآخرين، ثم قال :

« انا الذي أصابك يا اليسون. اني أعتذر لهذا الحادث العارض ».

ولم تلحظ اليسون على وجه نيال الصغير سوى القلق والاهتمام الحقيقيين. وبسبب ذلك ظلت الحادثة مزروعة في ذاكرتها وان كانت تحاول دائماً اخفاءها في الزوايا المعتمة.

لا فائدة من تذكر الماضي والندم على ما فات. ان اغلاق المدرسة سيعطيها فرصة للابتعاد عن شيليغ والتخلص من معظم متاعبها. عليها أن تقدم طلب انتقال الى ايفرنيس أو أدنبره، وهناك تحاول نسيان ما حدث، ومع الوقت ربما تنسى نيال ايضاً. فهي غير قادرة على تحمل رؤيته على بعد أمتار قليلة دون أن تعرف ما يفكر ... وأين يذهب...

ستخبر جيمي وأمها بقرارها عندما تعود. ولا شك ان جيمي لن تستغرب خطوتها هذه، فالملاحظات التي ابدتها في مناسبات شتى كانت تشير الى انها توقعت هذه النهاية...

نظرت اليسون الى السماء عندما احست بقطرات المطر تنهمر على يديها

ووجهها، فلاحظت ان الجو بات ملبداً بغيوم داكنة، وقد ازدادت البرودة وخيّم الضباب على الجزيرة كلها.

نهضت على عجل وسارت باتجاه المرسى وهي تشعر بالندم لأنها أتت الى الجزيرة في مثل هذه الظروف. وعندما وصلت إلى الشاطىء الآخر برفقة الكلب، فوجئت بأن المرسى خال... وبعد لحظات من الذهول، شاهدت القارب يسبح مع التيار باتجاه عرض البحر. وأدركت بعد فوات الأوان انها نسيت ربطه بالمرسى عندما ترجلت منه قبل قليل.

وهكذا فقدت الوسيلة الوحيدة التي تعيدها إلى البيت. وزيادة في الصعوبات والمشاكل، انفتحت ابواب السماء فجأة وانهمر المطر الغزير مصحوباً ببرق خاطف ورعد يصم الآذان...

استظلت اليسون فروع شجرة وارفة الاغصان، وتساءلت عما اذا كان بامكانها السباحة حتى الشاطىء الآخر. في مثل هذه الظروف الجوية، يبدو الأمر صعباً. فالتيارات المائية قوية وجارفة وسوف تشعر بالانهاك قبل أن تقطع نصف المسافة. بدأت الاغصان تتكسر تحت وقع المطر الغزير، وأخذ البلل يصيب رأس اليسون وثيابها.

الحل الوحيد الآن أن تبحث عن ملجأ يقيها هذا المطر المنهمر. لذلك نادت على الكلب راستي وأسرعت معه باتجاه الكوخ. أما وسيلة العودة الى البيت، فهذه مسألة أخرى ستعالجها فيما بعد.

عندما وصلت اليسون الى الكوخ، خطرت على بالها فجأة صعوبة الموقف الذي وجدت نفسها فيه. اذ ليس في البيت احد يفتقدها او يشعر بغيابها. فاليوم هو السبت، والسيدة ماكاي لن تعود قبل يوم الثلاثاء.

اجتاحت الوحشة نفس اليسون التي فكرت ان أمها ستتصل هاتفياً هذا المساء ثم تعيد الاتصال مرات... دون أن يجيبها أحد. وسرعان ما اخذت المشاكل تظهر تباعاً، فهي لا تملك عيدان ثقاب لإشعال نار التدفئة، وليس هناك طعام في الكوخ و... تلفتت حولها بحثاً عن شيء مجهول. لا فائدة من اضاعة الوقت في البكاء والندم، بل عليها أن تبحث في الكوخ عن حاجات ذات منفعة، قبل ان تشتد حلكة الليل ويصبح من الصعب عليها أن تلمس موقع قدمها.

كان الكوخ فارغاً من الأثاث، ولا شيء فيه يوحي بأنه يصلح للسكن. جلست اليسون على السلم الخشبي الذي يوصل الغرفتين السُفليين

بالغرفتين العلويتين واحتضنت الكلب راستي هامسة بصوت خافت:

« يبدو أننا سننام دون أكل هذه الليلة. أنا آسفة لذلك، لكنني في الوقت نفسه سعيدة لأنك معي».

سيظل هذا اليوم راسخاً في ذاكرتها إلى الأبد، ليس فقط بسبب الأرق الذي وجدت نفسها فيه فجأة، بل أيضاً لاكتشافها بأنها غارقة في الحب لأول مرة في حياتها.

جلست في الكوخ العاري تتأمل المطر الغزير المستمر في الخارج، لكن وجه نيال كان في كل مكان يملأ عليها مشاعرها وأفكارها. ولم تجرؤ اليسون على اغماض عينيها، لأنها تعرف أن صورة نيال الغاضب الثائر كما كانت في الليلة الماضية راسخة في أعماق عقلها.

ازداد ظلام الليل بسرعة بسبب الغيوم التي اشتدت كثافتها. لم تكن اليسون تخشى الظلام، لكن شيئاً ما في هذا المكان المنعزل اشعرها بالتوتر... اذ كانت تحس أن أجيالاً من عائلة ماكاي، ومن عائلة ماكين أيضاً، تراقبها من خلف ألف ستار وستار.

ويبدو أنها غفت قليلاً في جلستها غير المريحة تلك، وشاهدت حلماً غريباً فقد سمعت شخصاً ما يناديها ويكرر النداء عدة مرات. وكان الحلم قوياً مما ايقظ اليسون مذعورة لتجد ان الكلب راستي قد ذهب بعيداً. توجهت الى الباب صارخة:

« راستي... راستي ».

ومن حيث لا تدري سمعت صوت عواء راستي مصحوباً بصوت بشري ينادي:

« اليسون ».

اذن لم تكن تحلم، فالنداء حقيقي فعلاً. اسرعت خارجة غير عابئة بالمطر الغزير ولا بالعتمة الحالكة، ودموع الفرح تمتزج بحبيبات المطر المنسكبة... ولم تدر الا وهي بين ذراعي الرجل الذي ظهر فجأة من وسط الظلام.

فتحت عينيها بعد لحظات لتفاجأ بأنها في احضان نيال نفسه. همست بضعف محاولة الابتعاد عنه:

« لا... هذا أنت؟ ».

أجابها بصوت مرتجف :

« أرجوك لا تقلقي، دعيني أستدفئ قليلاً » .

حدقت اليسون في عينيه الغارقتين تحت المطر الغزير وبادلها هو النظرات نفسها. وحدث، في ذلك الليل الممطر . . . معرفة كل شيء .

لمس نيال وجه اليسون بحنان بالغ وهو يقول :

« اعتقدت أنك غرقت » .

« كنت في الكوخ لكن القارب . . . » .

قاطعها بلهفة :

« أعرف التفاصيل. لقد شاهدته سابحاً مع التيار، ثم شاهدت الثياب المنشورة في حديقتكم ما زالت تحت المطر . . . فأدركت أن شيئاً خطيراً وقع لك » .

تمهل للحظات، ثم أضاف قائلاً وهو يحكم ذراعه حولها :

« كان مجرد الشك أولاً، لذلك ذهبت الى الكوخ فلم أجدك أنت والكلب، عندها عرفت ما حدث » .

وبعدها دفن رأسه في عنقها وتابع يقول :

« في تلك اللحظات بدأ الكابوس المرعب. استعرت أول قارب وجدته على الشاطىء، وأنا أتمنى أن تكوني في القارب الآخر . . . لكني صعقت عندما وجدته خالياً » .

كان المطر قد بللها تماماً، وتحولت ملابسها الى أشبه بالمياه الغزيرة. لكن اليسون لم تكن قادرة، بل لم تكن تريد الابتعاد عنه ولو للحظة واحدة. فقد استولت عليها كلماته الملتهبة القلقة وجمدتها في مكانها . . . وبعد جهد استطاعت القول :

« أنا آسفة، لقد أخطأت في عدم ربط القارب بالمرسى » .

قاطعها بحنان :

« هذا ليس مهماً. المهم يا اليسون أني وجدتك سالمة ومعافاة » .

ثم انحنى عليها وضمها في عناق دافىء، يحميها من المطر والليل وكل المشاكل السابقة. ولم تعد اليسون تشعر إلا بوجوده الطاغي الذي ملأ عليها كل حياتها.

قال لها بصوت متهدج :

« يجب أن نذهب، فأنت مبللة حتى العظام، ويجب أن آخذك الى البيت فوراً » .

سارت اليسون باطمئنان تام وهي لا تصدق ما يحدث لها. من غير المعقول أن يكون هذا هو نيال نفسه . . . ولكن المطر والليل والطريق الوعرة أكدت لها الحقيقة الجميلة الرائعة.

قال نيال وهو يساعد اليسون على ركوب القارب :

« سنأخذ قاربنا لأنه أسرع » .

استغربت اليسون كيف أنه استعمل كلمة «قاربنا» بدلاً من كلمة «قاربي» كما هو في الواقع. أدار نيال محرك القارب وأدار الدفة بعيداً عن الجزيرة في حين اشتد المطر بشكل لا يصدقه عقل. وفي خضم من المياه، وقف نيال خلف دفة القارب وعيناه لا تبتعدان عن عيني اليسون. ولم يكن الاثنان بحاجة الى أية كلمات، فالنظرات الخاصة روت الحكاية كلها.

عندما وصلا الى الشاطىء، كانت اليسون ترتجف بشدة بحيث اضطر نيال الى حملها بين ذراعيه طيلة الطريق الى الكوخ. وضعها في مقعد مريح ثم قال :

« هيا بدلي ملابسك، وسنذهب الى البيت الكبير لأبدل ملابسي أيضاً » .

انصاعت لكلامه فوراً، ودخلت الى غرفتها للتخلص من الثياب المبللة وعندما عادت بعد دقائق وجدته قد سبقها الى المطبخ وراح يجفف الكلب الذي رقد بين يديه هادئاً مستمتعاً.

رفع نيال عينيه الى اليسون، ثم ربت على رأس راستي قائلاً :

« هذا يكفيك أيها الكلب المغرور » .

وبعد أن ابتعد الكلب، توجه نيال الى اليسون التي كانت تنتظره، وأمسك يديها بيديه الاثنتين الدافئتين. وهمس :

« اليسون؟ » .

« نعم يا نيال » .

« أنت تعرفين كل شيء، أليس كذلك؟ » .

لم تستطع اليسون أن تبعد عينيها عن عينيه، واكتفت بالقول :

« أجل، إنني أعرف » .

وأحنت غرقاً في عناق حار كان كافياً للتعبير عن المشاعر التي تملأ قلبيهما.
وفي وقت لاحق جلسا في مقعد مريح أمام النار بعد أن تناولا عشاء خفيفاً.
كانت ذراع نيال تحضن اليسون بقوة وكأنه يخاف أن تفلت من بين يديه مجدداً سائلاً :
« متى عرفت؟ ».
« اليوم ظهراً. ذهبت إلى الجزيرة كي أفكر في مشاكلنا، خاصة أنني اعتقدت أنك تحتقرني بعد الذي حدث الليلة الماضية. كنت أخطط للهرب بعيداً عنك . . . إلى أي مكان آخر ».
ابتسم بحنان لم تعهده من قبل، وقال :
« وهل اعتقدت أني سأتركك ترحلين؟ آه يا اليسون، سأكون قاسياً بحق نفسي لو تركتك تفعلين ».
وضعت أصبعها على فمه مقاطعة :
« لا، أنا التي أزعجتك لأنك كنت تأخذ مني كل شيء، دون أن أدرك أني كنت أحارب الانجذاب المتزايد في نفسي نحوك. ولم أتأكد من حبي لك إلا عندما وصلت إلى الجزيرة بعد ظهر هذا اليوم ».
ضحك نيال وهو يقول :
« أما أنا فاكتشفت مشاعري اليوم أيضاً. عندما عثرت على القارب خالياً أدركت أنك كل شيء في حياتي – تردد قليلاً قبل أن يكمل – طيلة السنوات الماضية كنت لا تبرحين عقلي. هناك في أعماق ذاكرتي ترقدين بهدوء وصمت . . . ودائماً كنت أتذكر لقاءنا الأخير في الغابة ».
لاحظ أنها انفعلت قليلاً فقال :
« أعتقد أنك لم تنسي ذلك اللقاء أيضاً؟ ».
« وكيف أستطيع النسيان؟ ربما بدأت القصة من هناك قرب الجدول المائي في ذلك المساء البعيد ».
« لعلها بدأت هناك. كنت رائعة الجمال يا اليسون وأنت تأمرينني بكبرياء أن أغادر المكان . . . بحيث لم أستطع مقاومة رغبتي في عناقك. ولسبب ما ارتبطت صورتك بالبيت الكبير. كنت دائماً أحب ذلك البيت وأحسدكما أنت والبيت لأنكما تعيشان فيه، بينما أنا . . . ».

حثته اليسون على الكلام بعد أن تردد قليلاً، فتابع يقول :
« حسناً. هل تذكرين عندما سألتني لماذا قلت أن البيت الكبير يجب أن يكون ملكي؟ ».
تسارعت دقات قلبها وهي تجيب :
« إذا كنت غير راغب في الحديث، فلا بأس ».
« لا أبداً. لم تعد هناك أسرار بيننا الآن يا اليسون ».
نظر إليها بحب بالغ وتابع قائلاً :
« عندما كنت صغيراً علمت أن هناك أكثر مما هو معروف عن الصراع القائم بيننا. كانت العائلتان مرتبطتين في أكثر من مجال، كالتهريب مثلاً. وفي إحدى الرحلات كان جدك الأكبر وجدي الأكبر يقامران، وقد تمكن الحظ من جدك الذي قامر بالبيت الكبير، وخسر. ولكن قبل أن تنتقل الملكية إلى عائلة هاكرين، وشى بعضهم بعمليات التهريب إلى رجال الجمارك. فاعتقل جدي، أما جدك فقد ظل طليقاً. لم يكتشف أحد حتى الآن كيف حدثت الوشاية ومن هو الواشي ولماذا لم يعتقل جدك؟ ولكن يمكنك تصور الشائعات التي انتشرت في القرية وهكذا، عندما تعلق الشك بالعائلة نفسها . . . اشتعلت الأحقاد وعاد النزاع مجدداً ».
هزت القصة مشاعر اليسون التي فغرت فمها دهشة، ثم قالت :
« أكنت تعرف طيلة هذا الوقت؟ ».
قاطعها قائلاً :
« كلا. الماضي ذهب من دون رجعة. كيف يمكننا اكتشاف الحقيقة بعد هذه السنين الطويلة؟ ما قلته كان مجرد كلام شاب مراهق ».
ابتسمت بحنان :
« إني أفهم مشاعرك. لقد كنا في عراك مستمر، من يدري؟ فلو أن النزاع لم يكن لأصبحنا صديقين حميمين؟ ».
ردّ بابتسامة عاشقة :
« ربما، لكن الحياة لن تكون ممتعة دون عراك ومناقشات. أنا لا أنسى أبداً تلك الأيام. آه كم غضبت يا اليسون عندما كنت أتحداك مع جوني . . . ».
« وأنا كذلك. طيلة الوقت كنت أكره النفس التي يجب أن لا أعلن

بأندريه لأنه ابنك. . . انها غيرة من نوع مختلف ».

« انه يحبك يا اليسون، ودائماً يتحدث عنك، ويسأل ما اذا كنت ستهتمين به عندما يكبر ».

تنهدت بعمق قائلة :

« كنت على وشك. . . »

« أرجوك لا تقوليها. اني بحاجة اليك يا اليسون. لم أشعر في حياتي بالحاجة الى انسان مثلما أنا بحاجة اليك الآن. كل تصرفاتك جعلتني اثور والغضب بحيث عجزت عن الردّ إلاّ بالعناق ».

ضحك مطولاً قبل أن يضيف قائلاً :

« لكنني لم ادرك تأثير العناق على تعصبك ».

« لا تقلق يا نبال. سأظل و [illegible] »

« لم أقصد التعليم. اني اريدك زوجة لي واماً لاندريه في البيت الكبير في آخر الحياة ».

« آه كم احبك يا نبال ».

وتولى العناق الحار التعبير عن المشاعر التي عجزت الشفاه عن تحويلها الى كلمات. . .

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 86

نهر الذكريات

هذا الكره هل هو الحب؟ اليسون تأرجحت طويلاً بين النار والماء باحثة عن نفسها.

نيال، الرجل الوحش بنظرته الحديدية اغلق عليها ابواب قلبه. انه لص سرق بيت طفولتها، وخطف ذكرياتها، وحرق اوراق ماضيها. لا شيء يجمعها به. والشفقة التي تحسها نحو ابنه الصغير اندريه لا تعني بأي شكل الخضوع لسلطانه.

انها تكرهه... لا بل تحبه... اليسون الجميلة عالقة في شباك نيال. بينهما قبلة قديمة، هل تكفي ذكراها لازالة الرماد عن الجمر؟